

د. كلثم جبر


أوراق ثقافية

أوراق ثقافية

د. كــلــثــم جـــبـــــر

الطبعة العربية الأولى/ ٢٠٠٣

الناشر : المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

إدارة الثقافة والفنون

قسم الدراسات والبحوث

ت : ٤٨٧٧٣٤٠ - ٠٩٧٤

فاكس : ٤٨٩١١١١ - ٠٩٧٤

الدوحة - قطر - ص.ب (٣٣٣٢)

تصميم الغلاف : محمود صلاح

الجمع التصويري : أيمن المــهــدي

التنفيذ الطباعي : مطابع الدوحة الحديثة

أوراق ثقافية

د. كلثم جبر

المبدع والانتماء

يشكو بعض النقاد من عدم وضوح هوية بعض المبدعين في الانتماء الفكري أو الموقف الثقافي الثابت، والذي لا يميل مع الريح حيث تميل، ولا يظهر بأكثر من وجه وأكثر من هوية، فهذا نوع من التذبذب وعدم الثبات، بل وعدم القدرة على تحديد موقف واضح وصريح تجاه كل القضايا المطروحة على الساحة الثقافية، وقد تلعب المجاملة أو النفاق الاجتماعي أو ضحالة الثقافة وقلة الوعي ، دوراً حاسماً في تشويه الهوية الفكرية للمبدع، وقد تكون بعض هذه الأسباب أو كلها عوامل لا يمكن تجاهلها في تأكيد ضبابية النظر لدى المبدع إلى بعض القضايا الثقافية ، التي لا تحتمل تعدد المواقف أو تحولها بين آونة وأخرى، تحت تأثير عوامل طارئة أو ظروف تملي تلك المواقف أو ذلك التحول، والمبدع المتذبذب في آرائه أو مبادئه، لا يمكن أن يحظى بثقة القارئ، وهذه الثقة في حقيقتها هي رأس المال الحقيقي بالنسبة للمبدع، بل هي الربح الحقيقي الذي يمكن أن يجنيه من إبداعه، فإذا فقد ذلك فقد كل شيء، فالقارئ لا يهتم بتلك الأسباب والمحاذير التي قد تتحكم في مسار إنتاج المبدع .. لكنه يهتم بالمبدع من خلال ما يكتب، ومن خلال ما يطرح من آراء

وأفكار، ومـا يتـبنى من مـواقف يفـتـرض فـيـهـا الصـدق والـوفـاء والانتـمــاء .. الصــدق فـيـمــا يكتب .. والـوفــاء لفكرتـه أو رأيه .. والانتماء لمعتقده بوعي ومسؤوليـة، وبغيـر ذلك يصعب على المبدع أن يحظى بثقة القارئ، وهي التي يسعى لها جميع الكتاب دون أن يكون لذلك أي تأثير على ولائهم لما يكتبون وما يطرحون من آراء وأفكار.

إن وضوح الرؤية في الطرح والانتماء، أمر لا يفـرضـه الصدق الفني فقط، بل يفـرضـه الصـدق الأخـلاقي أولاً وأخيـراً، وهو نابع من احترام الذات، واحـترام المبدأ، دون أن يقلل ذلك من احـترام الآخرين، وفي ظل هذا الاحترام تنمو ثقة القارئ بالمبدع ، الذي لا يترك قراءه تائهين في وديان الحيـرة بسبب عدم وضـوح هويتـه أو انعدامها كلياً، إذ على المبدع أن يؤكد لقارئة باستمرار الثبات على انتمائه الفكري ، الذي لا يعرف التحولات المفاجئة أو التغيـرات الدائمة، والميل مع هوى النفس، أو هوى الآخرين.

أما إذا حدث التحول في الموقف الفكري لسبب أو لآخر ، وكان هذا التـحـول ناضـجـاً وناتجـاً عن قناعـات واعـيـة ومـسؤولة، فـلا مـأخذ عليـه، لأن مثل هذا التحول لا يحدث بشكل مفـاجئ، ولكنه يحدث بوعي كامل ، وإدراك تام لما يعنيـه من نتـائج وتبعـات .. أما التحول السـريع والدائم والمفاجئ ولأسـبـاب مصلحيـة، فـهـو دليل

على ضحالة الثقافة، وسطحية الفكر، وعدم الثبات على المبدأ، ومهما كان انتماء المبدع فإن تأكيد هذا الانتماء – من خلال العمل الإبداعي – مطلوب وضروري وهام لمعرفته معرفة حقيقية، والتعامل مع إنتاجه بروح مستوحاة من تلك المعرفة بذلك الانتماء، وذلك الوضوح، فالصدق في الانتماء الثقافي هو وجه آخر للصدق في الانتماء الأخلاقي، الذي يحرص الجميع على التقيد بقواعده الصارمه، وشروطه الملزمة، ليس للمبدع فقط، بل لكل البشر.

وما من مبدع يحترم نفسه إلا ويتمثل بقول الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة | فإن فساد الرأي أن تترددا

وهذا لا يعني التمسك بالرأي وإن كان على خطأ، ولكنه يعني الثبات على الرأي الصحيح وما يعنيه من تبعات ومسؤوليات، ومثل هذا الثبات هو الذي يحدد هوية المبدع وموقفه من قضايا الحياة والثقافة، أما أولئك الذين يتلونون بين آونة وأخرى، وينجرفون مع زمرة المطبلين والمتاجرين بقضايا أوطانهم وأمتهم، فإن مصيرهم في النهاية هو الإهمال، لأن التاريخ لا يذكر سوى أصحاب المواقف الواضحة، والهوية الراسخة جذورها في أعماق الأصالة، والمبنية على قواعد صلبة من سلامة الفكر والمبدأ، ووضوح المنهج والإنتماء، وقد قيل:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدًا | إن الحياة عقيدة وجهاد

وانتماء المبدع لا يعني عزلته عن ما يجري حوله من أحداث، أو صراعات فكرية، لكنه يعني أن يكون له موقفه الخاص والواضح والثابت من هذه الأحداث والصراعات، حفاظاً على انتمائه، وتأكيداً لهذا الانتماء ومسؤوليته المباشرة وغير المباشرة.

أفـق الـذكــريــات

الذكريات الجميلة زاد للإنسـان في رحلة الحياة، يستمد منها لحظات الفــرح التـي تنقله إلى أجــواء تلك الذكــريات دون أن يستطيع الفكاك من واقعه مهما كان الواقع.

والذكـريـات الحـزينة هـاجس مـزعج، تـرمي الإنسـان فـي أتون القلق والتوتر، وتعـزله ـ في بعض الحالات ـ عن الشعور بما حوله، فيفقد الإطمئنان والراحة، وكأن لا أحد غيـره يملك رصيـداً من الذكريات الحزينة التي تمر بكل إنسـان، ولا مـجال لأحد للتخلص منها بأي حال من الأحوال.

ذلك هو أفق الذكريات المتقلب الأجواء والأنواء.

في الحـالتين تظل الذكـريات مـصدر الموعظة، فـلا الفـرح يدوم، ولا الحـزن يدوم، والرضـا دون خضـوع، والقبـول دون إستسـلام .. طريقـان للإنسـجـام مع الذات ومع الناس ومع الحـيـاة، وفي هذه الحياة من الجمـال بقدر مـا فيها من القبح، كمـا أن فيها ما يبعث على الأمل بقـدر ما فيهـا مما يبعث على اليـأس، والعبـرة تكمن في حسن اختيار المواقف واتخاذ القرار حيال ما يواجه المرء من أمور تسـتـدعي قــراراً لا يؤدي إلـى الندم، ومــثل هـذه الحكمــة في

التصرف، تقلل من الذكريات الحزينة حتى وإن لم ترجح كفة الذكريات السعيدة.

إن الجمال والقبح وكذلك الأمل واليأس .. كلها مسائل نسبية، وفي المسائل النسبية، تتفاوت الأحكام بقدر تفاوت هذه النسبية من حال إلى حال، وقد يبلغ بأحدهم (الضحك) إلى حد (البكاء) أو (البكاء) إلى حد (الضحك) وهذا التقاطع في الحالة النفسية للمرء محكوم بسياج معقد من العوامل المختلفة التي تبدأ مع الإنسان قبل أن يرى النور، وهو جنين في بطن أمه، يحمل الجينات الوراثية، ويتأثر بما يسمع من أصوات هامسة أو صاخبة، ودودة أو عدائية، تطفح بالكآبة أو تفيض بالفرح.

الذكريات جزء من نسيج الإنسان وتكوينه النفسي، تتنامى بالتقدم في العمر من حيث تأثيرها على السلوك البشري، وإن أدى التقدم في العمر إلى زوالها التدريجي من الذاكرة، لكن هذا لا يعني النهاية الكاملة للذكريات التي لا تنتهي إلا بإنتهاء العمر، أما إذا قدر لها التسجيل بأي وسيلة كانت، فإنها لا تنتهي بانتهاء العمر، بل أن تحال إلى ذمة التاريخ.

ومن فضل اللّه على الإنسان أن منحه نعمة النسيان، حتى لا تقض مضجعه تلك الذكريات الحزينة، وتحيله إلى القلق الدائم والكآبة المستمرة، فبعض الذكريات الحزينة ذات سطوة شديدة

على الذاكرة، وما لم يطوها النسيان، سيكون إزعاجها كبيراً إذا إرتبطت بأحداث شديدة القسوة في النفس.

وإنسان بلا ذكريات .. جميلة كانت أو حزينة، هو إنسان يعيش على هامش الحياة، بل هو إنسان غير سوي، إذ يتجرد من عواطفه، وردود فعله حيال ما يلقى من مواقف، تدفعه إلى الطموح أو الإحباط، وهي مواقف في غالبيتها، مفروضة ولا خيار للإنسان حيالها سوى إتخاذ قرار يتناسب مع كل موقف، مما تفرزه الحياة في مسيرتها الدائمة التي لا تعرف التوقف إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

ولعل من حسنات الإبداع أن المبدع يستطيع أن يستفيد من ذكرياته، مهما كانت سعيدة أو حزينة، عندما تصبح هذه الذكريات بالنسبة له عاملا محرضا على الإبداع، فهي مادة خصبة، يستطيع أن يستفيد منها بإعادة صياغتها في عمل إبداعي، فهي تجربة ذاتية، تحرض ملكة الإبداع لدى من يملكون القدرة عليه، وكثيرون هم أؤلئك الذين تحولت ذكرياتهم وتجاربهم الذاتية إلى أعمال إبداعية تأخذ بالألباب، وتستحوذ على اهتمام الملتقى، بعد أن أعاد صياغتها مبدع متميز، أراد أن يحيل هذه التجارب من مادة خام خاصة به وحده، إلى مادة إبداعية خاصة بجميع المتلقين الذين ستتاح لهم فرصة الإطلاع عليها.

وسواء في الشعر أو القصة أو حتى في الفنون الجميلة كالتشكيل وغيره، كانت الذكريات أفقاً واسعاً للمبدعين، استطاعوا من خلاله تقديم أعمال خالدة، نظر إليها المتلقي بكثير من الإعجاب ، دون أن يدور بخلده أن هذه الأعمال ليست إلا ذكريات عاشها مبدعوها، واستطاعت أن تلهمهم هذه الأعمال الإبداعية الخالدة، بعد أن ألحت عليهم كثيراً ، ولم يجدوا مناصا من أن يحيلوها إلى تلك الأعمال الإبداعية الخالدة.

عـدوانيــة الحــوار .. لمــاذا ؟

هل فاجأك يوماً أحدهم بحوار عنيف تشم منه رائحة النزعة العدوانية ؟ وهل قرأت يوماً هذا النوع من النقد المتعالي الذي ينضح بالغطرسة، ويفوح برائحة الحدة والشراسة ؟ وهل استمعت يوماً إلى هذا الجدل الساعي إلى تقويض أسس الحوار الحضاري والواعي والهادف ؟ وهل شاهدت خلافاً بين اثنين أدى إلى مشادة لم تقتصر على اللسان، بل تعدته إلى الأيدي ولسبب أو أسباب تافهة لا تستحق الخلاف ؟

إذا كان هذا الأمر قد مرّ بك .. فما هي ردود الفعل لديك حيال هذا النهج الصعب في الحوار ؟ هل تكتفي بموقف المتفرج، أم تسارع إلى إعادة المياه إلى مجاريها بالحكمة والموعظة الحسنة ؟ وإن أقدمت على ذلك ، كيف تضمن قبول الطرفين بتدخلك الذي ربما أدت رعونة أحدهما إلى أن ينالك الأذى بسبب تدخلك غير المرغوب، مع أنك لم ترد سوى إصلاح ذات البين.

إن النزعة العدوانية لدى عامة الناس ، ما هي سوى استجابة ساذجة لعقدة الشعور بالنقص، وإن كان علم النفس يرى أن هذه النزعة العدوانية ما هي سوى رد فعل للخيبة والإحباط والحرمان، يواجه بها المرء مصدر تلك الخيبة، أو البديل عنه، وهذا البديل

هو الشخص الذي يؤدي التعامل معه إلى عنف الحوار أو التعالي في النقد، أو الجدل غير الواعي ، أو الخلاف المؤدي إلى مشادة غير محمودة العواقب. وعند آخرين يكون التغلب على عقدة الشعور بالنقص عن طريق العمل الإيجابي لتجاوز هذه العقدة دون أضرار.

وإذا صدرت عدوانية الحوار من عامة الناس فهي مرفوضة، لكنها مرفوضة أكثر إذا صدرت من مثقف يتصدى لمظاهر القصور، إن لم نقل التخلف، في محاولة جادة لتجاوز تلك المظاهر، وفق الشروط المتاحة وبالأدوات الممكنة، إذ لا يمكن مجابهة هذا الواقع المر بغير الوعي والرغبة الصادقة في مد جسور الحوار على أسس سليمة وبعيداً عن التوتر والإنفعال.

إن الحوار الطافح بالعدوانية لا يعبر عن رغبة أكيدة في الطرح الجاد والهادف، لكنه يعبر عن حقد دفين تنطوي عليه نفس مريضة، ويجد متنفسه في أول بادرة للخلاف أو الإختلاف حول بعض الأمور، وتلك هي طبيعة النفوس التي لم تستطع الثقافة تهذيبها ، ولا التجارب ترويضها والسمو بها عن الإنحدار (الخلقي) الذي لا يليق بمن ينتمي للثقافة ويحمل أمانة الفكر، ورسالة (الإصلاح) .

لقائل أن يقول أن حدة المواجهة مهما بلغت قسوتها، ومهما تمادت في عدوانيتها .. تظل أهون من الطعن في الظهر، وهو نوع من الغدر المشين الذي لا يرتكبه الإنسان السوي. وهذا قول لا يجانبه الصواب، لكن لماذا العدوانية ؟ ولماذا الغدر ؟ ما دمنا نتعامل من خلال الثقافة، وما قيمة المشروع الثقافي برمته إذا كان سيقودنا إلى العدوانية أو الغدر أو المقارنة بينهما لمعرفة أيهما أهون من الآخر ؟

إن العدوانية المباشرة والغدر الخفي .. وجهان لعملة واحدة هي الحقد الذي يعمي البصيرة، لكنه لن يخفي الحقيقة أبداً، فما أكثر الذين يتبنون مواقف عدائية، ثم يتضح للجميع أن مواقفهم لا تعتمد على الواقع، ولا تستند إلى الحقيقة، وإن أرادوا تمرير مواقفهم فلن يفلحوا لأن حبل المغالطة قصير.

إن عدوانية الحوار لا تليق بالإنسان السوي، وهي تتنافى مع الخلق القويم، وتسقط من حساب الإنسان قيماً جديرة بأن يحافظ عليها، ويحميها من رياح الإنفعالات والأهواء التي لا تؤدي إلى النتائج غير المحمودة.

وما أجمل أن يكون الحوار وسيلة للألفة والمحبة وليس للخلاف والتنافر.

الذين لا يعجبهم العجب

هناك أناس لا يعجبهم العجب، فهم يتذمرون دائماً، يتظاهرون بالضيق لأتفه الأسباب .. لا يرون من الحياة إلا جوانبها المعتمة، حتى وإن لم يكن هناك ما يبعث على التذمر والضيق، وإن وجد السبب أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، وتحولت كل الحسنات في نظرتهم إلى سيئات، وكأن هذه النظرة السوداوية جبلة تعودوا عليها، وطبع ألفوه.

هؤلاء لا يعرفون من الحياة جوانبها المشرقة، بعد أن غرقوا في سوء التفكير وسوء الظن إلى حد المرض، مع أن الحياة فيها الحلو والمر، والزمن فيه النهار والليل، والعواطف فيها الخير والشر، والمواقف فيها الإيجابي والسلبي، والحياة لا تستقيم بغير هذه التعادلية، ولكنهم يتجاهلون هذه الحقائق.

الحياة في نظرهم سيئة إن لم تكن حلوة على الدوام، والزمن لديهم مظلم إن لم يكن مشرقاً على الدوام، والمواقف مريبة إن لم تكن كما يريدون على الدوام.

الطموح في الوصول إلى الأفضل هو مطلب البشرية عبر تاريخها الطويل، ولكن هذا الطموح لم يقض على الجوانب الأخرى من الحياة، هذه الجوانب التي يفترض أن يتعامل معها

الإنسان بواقعية حتى لا تتحول إلى نكد دائم، فيضيق بالحياة ذرعاً، وتضيق به الحياة ذرعاً، وآثار موقفه هذا لا تقتصر عليه، بل تمتد إلى من حوله، وهي آثار سلبية دون شك، لما يعتريها من تشكيك وسوء ظن وضيق وتذمر، وقد تصل به الحال إلى إرتكاب الخطأ ضد غيره انتقاماً وتشفياً، لأن التصرف تحت ضغوط المشاعر العدائية أمر لا تحمد عقباه.

وقد يلجأ الناقمون إلى وسائل غير مشروعة للتعبير عن رفضهم لبعض الأمور، ونقمتهم من بعض الأمور، ولو كانوا أسوياء قابلوا الحجة بالحجة، وقارعوا الدليل بالدليل، حتى وإن لم يرضوا عن واقعهم الذي يضيقون به ذرعاً، ويتذمرون منه ليل نهار، وكأنما الدنيا خلقت لهم وحدهم، وأن على الآخرين خدمتهم وحدهم، وهذه نظرة خيالية لا تستقيم معها الحياة التي تعني العطاء والبناء، بقدر الأخذ والاستيلاء، فالحقوق تتأتى بأداء الواجبات، ومن الخطأ أن نعيب زماننا والعيب فينا.

وإذا صدر هذا الأمر من عامة الناس، ربما وُجد لبعضهم بعض العذر، لكن أن يتفشى هذا الأمر بين المثقفين، فهذا هو العجب العجاب، لما يفترض أن يتمتعوا به من سعة الأفق، وقدرة على الحوار المقنع بالحجة والدليل، والذي يصبح معه الجدل كالنفخ في القربة المثقوبة.

ولعل قضايا الفكر والثقافة هي الأكثر جدلاً على مر التاريخ ، لذلك لا يليق أن نضيق ذرعاً بمن يختلفون معنا في الرأي، وما من قضية فكرية أو ثقافية قد حسمت بشكل نهائي حتى الآن، ولا أظن يوماً سيأتي تحسم فيه كل قضايا الفكر والثقافة، فهذا أمر ضد طبيعة الإنسان وتوقه الدائم إلى الجدل ، بهدف الوصول إلى الأفضل في كل الحالات، بصرف النظر عن إمكانية أو عدم إمكانية هذا الأمر، أي الوصول للأفضل.

لكن بعض الناس يأبى إلا أن يرى الشوك في الورود، ولا يرى الورود ذاتها. وقد قيل:

والذي نفسه بغير جمالٍ   لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

إن إشراقة الرضا في النفوس، وانبلاح التسامح في القلوب، وانبعاث لين الجانب في الأفئدة، كل ذلك ينبع من الذات، وها نحن نرى أناساً مهما اختلفوا مع الآخرين ، أو اشتد الآخرون في الخلاف معهم ، أو عبست الدنيا في وجوههم .. يواجهون ذلك كله بابتسامة المنتصر على الهزائم، وقوة المصمم على قبول الرأي الآخر ، مهما بلغت حدة الخلاف معه . ومن يضيق ذرعاً بآراء الآخرين، سيضيق الآخرون ذرعاً برأيه حتماً.

الشـعـر العـربي المعـاصـر .. إلى أين ؟

مثل هذا السؤال الكبير لا يمكن الإجابة عليه في زاوية محددة المساحة ، ولكنه يفرض نفسه نتيجة هذه التجاوزات الكثيرة، التي يتعرض لها الشعر العربي المعاصر، مما أتاح لكل من هب ودب أن يتجاوز الخطوط الحمراء التي تفصل بين الشعور والنثر، وتحدد الأجناس الأدبية المختلفة، وفق ما تعارف عليه الجميع، ولكن موجة التقليد للصرعات الوافدة ، قد امتدت حتى إلى الشعر ، بعد أن طغت على معظم المظاهر الحياتية، لتطمس معالم الأصالة في الحياة، وتجتث ملامح الهوية التي تنفرد بها الأمة العربية عن سواها من الأمم .. لتوجد بديلاً عنها حياة عقيمة هزيلة المعني أو المبنى.

لقد تأثر الشعر العربي تأثراً واضحاً بهذه المحاولات المسفة التي يصر بعض النقاد العرب على إقحامها عنوة إلى الشعر العربي، ليرسموا ملامح مشوهة للقصيدة العربية الأصيلة، وهي التي تمسك وتملك من مقومات البقاء والصمود، مالا يتوفر لغيرها من فنون الكتابة ، وتأتي تلك المحاولات تحت شعارات براقة ، كالتجديد والتطوير والتجريب والعصرنة وتجاوز المألوف، ولكن لماذا تجاوز المألوف مادام يملك مقومات التطور في ذاته دون أن تفرض عليه ؟

إن الشعر وهو يشهد هذه الموجات من التغريب والتجريب والتخريب، يقف أمام مفرق طرق لا ينقذه منها، سوى القصائد الرائعة، والدواوين المتميزة التي تجود بها قريحة شعراء يملكون من قوة الإبداع ما يتيح لهم تجاوز كل مظاهر الضعف، ليعبروا بالقصيدة العربية، وبالشعر العربي إلى شاطئ الأمان، وسط أمواج هوجاء، ورياح عاصفة من الدعاوي البائسة، التي تحاول تجريد الشعر العربي من انتمائه، وطمس معالم تميزه وروعته.

ولا أحد يمكنه الوقوف في وجه التطوير، فالقصيدة العربية كما قلنا قادرة على استيعاب هذا التطوير، وتمثله أفضل ما يكون التمثيل، فهي ليست جامدة، لكن التطوير يتنافى تماماً مع عملية تخريب كل القواعد التي ميزت القصيدة العربية عن غيرها من ألوان الأدب الأخرى، وليس أسوأ من أن يثقل كاهل الشعر بما هو ليس منه، مع أن ألوانا أخرى يمكنها أن تستوعب ما ينسب إليها من أنواع الكتابة الأدبية دون أن يؤثر ذلك على مستواها أو يقلل من شأنها.

المؤسف أن وسائل الإعلام تسهم في تكريس ظاهرة الضعف في الشعر ، بما تقدمه من نماذج توحي أن ليس بالامكان أفضل مما كان. إن هذه الأمة زاخرة بالشعراء الأفذاذ، وبالمواهب المتميزة ، التي لا ينقصها سوى أن تتاح لها الفرصة لتتنفس في أجواء

مناسبة من حرية التفكير والتعبير، باعتبار الشعر أداة بناء وليس وسيلة لهو، شأنه في ذلك شأن بقية فنون الأدب التي تملك من التأثير ما يتيح لها إثارة الكثير من الأسئلة الجادة والهامة حول أمور الحياة المختلفة، وتحريض العقل على التفكير العميق في كثير من الأمور.

وإذا ارتضى المشرفون على المنابر الثقافية والإعلامية فسح المجال أمام ذوي المواهب المتواضعة، وتقديمهم باعتبارهم شعراء بارزين، فإن لهذا الأمر ضرره المؤكد، فمثل هذه المواهب المتواضعة يمكن أن تأخذ فرصتها في نطاق التشجيع لا غير، حتى إذا ما اشتد عودها وأصبحت قادرة على العطاء، ستجد فرصتها دون شك لتأخذ دورها المناسب.

لقد كانت للشعر العربي ولا زالت مكانته الكبيرة في نفوس القراء، ومحاولات تشويه سمعته بتقديم نماذج هزيلة منه، كل ذلك لن يجدي في زحزحة الشعر عن مكانته في قلوب قرائه، فلا زال المتلقي الجاد يأنس بالشعر الجيد ويستفيد منه، ويطرب له، ويسعى إليه، وهذا ما يفسر إقبال الجمهور على حضور أمسيات الشعراء المعروفين الذين تستضيفهم بعض المنابر العربية على امتداد رقعة العالم العربي، بل وفي بعض العواصم العالمية أيضاً.

وإذا عدنا للإجابة على السؤال (الشعر العربي إلى أين ؟)

سنجد الإجابة في هذه الحفاوة التي يحظى بها، رغم تعدد وسائل المعرفة التي قد تأخذ الكثير من أوقات القراء، لكن يظل للشعر ذلك الجزء من اهتمام الناس به، سواء كان هذا الجزء صغيراً أو كبيراً، أما الذين يخشون على الشعر من تأثير وسائل الاتصال المرئية والتقنيات الحديثة، فيمكن القول أن خشيتهم في غير محلها، لأن هذه الوسائل في النهاية ستخدم الشعر، وتقدمه إلى الجماهير في قوالب جديدة أكثر جاذبية وأكثر إغراء ، لمن يريد أن يتذوق الشعر بالوسائل الحديثة، بعد أن تعود قراءته أو سماعه.

مصيبة الشعر الحقيقية في هذا السيل الجارف من الإنتاج الهزيل الذي لا يمكن أن تنطبق عليه مواصفات الشعر، ومع ذلك فهو يحظى باهتمام وسائل النشر، ليأخذ أكثر مما يستحق بحجة تشجيع الشعر، وهو بعيد كل البعد عن الشعر ، لأن الشعر منه برئ.

التفكير الإبداعي

أساليب التفكير الإبداعي من الأمور التي تحظى باهتمام المسؤولين التربويين، بهدف تطويرها والاستفادة منها في تحريض الملكات الإبداعية لدى الناشئين، اللذين يشكلون رصيداً زاخراً بالعطاء للوطن والأمة، فقد أحسنت وزارة التربية والتعليم صنعاً عندما أنشئت (المركز القطري لرعاية الموهوبين والمبدعين) وأسندت مهمة إدارته إلى د/ نوره يوسف المنصور، وفي إطار أنشطة اللجنة الثقافية والاجتماعية لكلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالجامعة، قدمت د/ نوره المنصور محاضرتها عن (أساليب تنمية التفكير الإبداعي لدى الطالبات) وهو موضوع على درجه كبيرة من الأهمية التي عبرت عنها الأسئلة والمداخلات التي أعقبت المحاضرة من قبل الحضور، سواء بعض أعضاء وهيئة التدريس أو الطالبات ، وهي أسئلة أثارت العديد من القضايا المتعلقة بالإبداع، وتنمية أساليب التفكير الإبداعي ، والمؤثرات التي تخدم المبدعين ، والتحديات التي تواجههم في جميع الظروف وعلى كل الأصعدة.

وقد قدمت د/ نوره المنصور في محاضرتها برنامجا يتيح للمشاركين (فرصة للتدرب على قراءة الذات، وتكوين اتجاه

إيجابي نحو الذات، كذلك معايشة الفروق والاختلافات في الآراء ، وتنمية مهارات استثمار الخلاف في تحسين العلاقات مما يؤدي إلى مرونة التفكير، وتعددية الرؤى للقضايا، ويساعد الفرد على إعادة التفكير في القضايا المختلفة).

وبعيداً عن المصطلحات الأكاديمية التي لا تعني القارئ كما تعني الأكاديميين، فإننا نجد أنفسنا أمام مسئولية تنمية المواهب لدى الناشئين، وهذه المسئولية فردية على مستوى الفرد ذاته، كما أنها جماعية على مستوى المؤسسة التربوية والتعليمية، فالإبداع هو طريق النجاح، والتفكير الإبداعي هو الأفضل لحل المشكلات وإزالة المعوقات التي قد تعترض برامج التنمية.

وكما أوضحت المحاضرة فإن البيئة ذات تأثير مباشر في تسيير أو إعاقة الإبداع، وملامح البيئة التي تيسر الإبداع هي:

- تشجيع الثقة بالنفس.
- تشجيع الحرية وحب الاستطلاع والتلقائية.
- تشجيع مهارات الإبداع: الطلاقة - المرونة - الأصالة - التفاصيل.
- تشجيع تحمل الاختلاف وتحمل الغموض.
- تشجيع الخيال وتنوع البدائل.

أما البيئة التي تعوق الإبداع فهي التي:

- لا تشجع الثقة بالنفس.
- يظهر فيها التسلط والجمود ومسايرة المألوف.
- لا يتحمل أفرادها الاختلاف مع الآخرين.
- لا تشجع تنوع البدائل والأفكار.
- تعوق مهارات الإبداع: الطلاقة - المرونة - الأصالة - التفاصيل.

هذا ما ذكرته المحاضرة بالحرف الواحد.

ولسنا بصدد مناقشة هذه الأفكار، لكن المؤكد أن المجتمعات النامية تعاني أكثر من غيرها بالنسبة لتنمية أساليب التفكير الإبداعي، لأن مستوى الوعي لدى الفرد في هذه المجتمعات النامية، لم يصل إلى درجة القناعة بأهمية وضرورة هذه الأساليب، والعمل على تحريض التفكير الإبداعي، لكن طرح ومناقشة الكثير من القضايا ذات العلاقة بالناس والحياة، وما يتفرع عن ذلك من أمور ، ذات أهمية قصوى ، وتأثير مباشر في حاضر ومستقبل الوطن والأمة، فالأمجاد لا يصنعها الخمول، والإنجازات لا تحققها الرتابة في التفكير، وتقليد الآخرين، والتسليم بالقناعات السائدة التي ما انزل اللّه بها من سلطان.

وهذه المحاضرة وما يشابهها من محاضرات أو ندوات أو حلقات دراسية، سواء كان ذلك على مستوى الجامعة أو المؤسسات الثقافية الأخرى .. أقول أن ذلك كله، إنما هو خطوة في مشوار الألف ميل ، للوصول إلى وعي تام وكامل بأهمية تنمية التفكير الإبداعي لدى الفرد والمجتمع، وفي المؤسسة الأهلية والإدارة الحكومية ، فهي ليست مسألة نخبوية تعني فئة من الناس دون غيرهم، ولكنها مسؤولية عامه وشاملة، فإذا أريد للمجتمع والوطن والأمة المزيد من التطور والمزيد من التقدم والمزيد من الازدهار، فهذا لن يتم بغير التجديد والتفوق والإبداع في كل المجالات التي تنهض بسببها الأمم والشعوب، وتتقدم في مدارج الرقي لتصل إلى المكانة المنشودة.

إن التحديات الكبرى التي مرت بها معظم الدول لم يطوها التاريخ، ولم تذهب سدى، بل كانت أساساً لتطور تلك الدول، التي وجدت في التفكير الإبداعي وسيلتها لتجاوز تلك التحديات، ابتداء من القاعدة وهي الفرد والمجتمع، ووصولا إلى القمة وهي السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

الثقافة العربية والعولمة

سياسة القطب الواحد أصبحت واقعاً ملموساً لا يمكن تجاهله، وما يسمى بالعولمة ليس جديداً في واقع الأمر، فقد ظلت الدول النامية ولقرون عديدة خاضعة لنفوذ الدول الغنية بشكل أو بآخر، وتتضح هذه التبعية في أنماط السلوك الإنساني، والاعتماد على المنتج الغربي بوجهه الاستهلاكي، واستيراد التقنية دون المشاركة في صنعها، فهي إذن عولمة جذورها ضاربة في أعماق التاريخ الحديث، بل والقديم أيضاً، لأن الحضارات القديمة أكدت سيطرة دول الشمال على دول الجنوب في حقب زمنية عديدة.

وفي السنوات الأخيرة تبلورت هذه السيطرة لتلبس ثوباً جديداً يسمى العولمة، تتمكن من خلاله الدول الغنية من احتواء الدول الفقيرة والسيطرة على مقدراتها وثقافاتها وانتماءاتها الوطنية والقومية والدينية، وكأننا في عالم البحار حيث يتاح للأسماك الكبيرة أن تبتلع الأسماك الصغيرة ، وهو نظام تخضع له الكائنات البحرية ، لكن الإنسان ليس كائنا بحريا على كل حال.

لقد ضاقت دائرة العولمة لتدور في فلك واحد، بعد أن فرضت سياسة القطب الواحد وجودها على الكون، وأتاحت فرص الاستبداد والتفرد بالقرار، فيما يخص واقع ومستقبل العالم، وهي

سياسة أفرزت سلبيات جسيمة، تدفع ثمنها الشعوب دون أن تتاح لها فرصة الرفض أو حتى مجرد المناقشة، فالرأي الواحد يصادر كل الآراء (والفيتو) سيف مسلط على كل الرقاب، وهذه لغة مرفوضة من قبل كل الشعوب والأمم.

وأمام موجة العولمة الهادفة إلى اكتساح كل الثقافات، تقف الثقافة العربية في مفترق الطرق، فالعولمة واقع، والهروب منها مستحيل، إذن فان الحل الأمثل هو المساهمة في هذه العولمة بشكل فعال، وبالقدر الذي تتيحه الظروف، خاصة وان معالم الطريق واضحة، والأهداف جلية، والوسيلة متاحة، والثقافة العربية تملك من المقومات الأساسية، ما يتيح لها فرصة المساهمة في الحضارة المعاصرة بشكل إيجابي وفعال، فلديها رصيد ضخم من الإنجازات العلمية والأدبية ما كان ولا يزال محط الأنظار وموضع التقدير، خاصة من قبل المنصفين في الغرب، لكن هذه المقومات تحتاج إلى الدعم الذي يعي متطلبات العصر ومفاهيمه، مما يضع أصحاب القرار في مواجهة مبشرة أمام مسؤوليات كبيرة لتطوير أداوات ثقافتنا العربية المعاصرة، ليكون لها وجودها المرموق في العولمة الجديدة.

ولعلنا بالتطرق إلى جانب واحد من جوانب الاهتمام بواقع الثقافة العربية من قبل أصحاب القرار، ندرك ما يجب اتخاذه

حيال العديد من الأمور الأخرى ذات العلاقة بالثقافة العربية ، ودورها المنتظر في العولمة، ذلك هو جانب البحث العلمي، والمقارنة بين ما تبذله الدول الغربية وما تبذله الدول العربية في هذا المجال، توضح البون الشاسع، والفارق الكبير بين ما هو كائن وما يجب أن يكون.

فمما يدعوا إلى الأسف أن ميزانية البحث العلمي في الدول العربية قاطبة، لا يبلغ إلا القليل مما تبذله شركة أجنبية واحدة في الغرب في هذا المجال، وهذا أمر إن لم يتم تداركه من قبل أصحاب القرار، فستكون الثقافة العربية صيداً سهلاً للعولمة، وهذا مالا يرضاه أي عربي يعي خطورة هذه التبعية للغرب، والتي نعيشها في كل المجالات.

وأن يكون لثقافتنا دورها في العولمة، فهذا لا يعني رفض الآخر، ولكن يعني تطوير الذات من خلال الاستفادة من الرصيد الضخم للثقافة العربية، وفي الوقت نفسه الاستفادة مما يقدمه الآخر من منجزات على أن يؤدي ذلك كله إلى المشاركة في صنع حضارة هذا العصر.

فما دامت العولمة واقعاً مفروضاً لا مفر، منه فليس في الأمر ما يمنع من المشاركة في هذه العولمة، وليس التبعية لها، والمشاركة تعني عملاً مبنياً على أسس علمية وأهداف واضحة، واستراتيجية

طويلة المدى، ليكون للثقافة العربية دورها الإيجابي في العولمة. ولتكون العولمة بشكلها الذي تستفيد منه كل الشعوب، ما دامت هذه الشعوب خاضعة لنتائج هذه العولمة سلباً وإيجاباً، وسيطرة القطب الواحد سياسياً واقتصادياً وعسكرياً لابد له من حل، لأن المأزق الحقيقي الذي تمر به الحضارات، هو أنها إذا بلغت أوج التفرد في القرار، وأساءت استخدام هذا الحق الذي اغتصبته من كل الشعوب، فهذا يعني إيذانا بانهيارها، وهذا ما تثبته شواهد التاريخ.

الفن والسقوط

يكثر الحديث عن الإعلام، وطغيان التسطح على معظم ما ينشر على صفحات الصحف، وخاصة في الفن الذي سماه أحدهم بالعفن، وهي تسمية تتاسب إلى حد كبير ما ينشر في معظم الصحف، التي نذرت نفسها لمثل هذه الاهتمامات، وسخرت صفحاتها لكل ما هو بعيد عن أهداف الصحافة الجادة، ومن هذه الأهداف الارتقاء بوعي القارئ، وتنمية مستواه الثقافي، وزيادة رصيده المعرفي، وبدلاً من ذلك تنغمس في الكتابات التي تنمي في القارئ روح الانهزام واستلاب الهوية والانشغال بتوافه الأمور.

والقول بأن الفن قد تحول إلى عفن بواسطة الصحافة .. قول لا يجانبه الصواب، وها نحن نرى الدليل تلو الدليل، من خلال ما ينشر في الصحف عن أخبار هذا الفن ورجاله ونسائه، من المتبرجين والمتبرجات، الذين يجاهرون بالفحش، ولا يشعرون بالحرج حيال ما يرتكبون من إثم في حق أنفسهم، وحق الآخرين، من المتهافتين على هذا الذي يسمى فناً .. من الأفلام الماجنة، والأغاني الخليعة، والترويج لبرامج تدس السم في العسل، لأن من يدير هذه البرامج جاهل أو متجاهل لأبسط التعاليم الإسلامية والمبادئ الشرعية.

وإذا كان الفن إبداعاً يتمثل في القصيدة الرائعة، أو القصة الجميلة، أو العمل الإبداعي المتميز، فقد تحول على أيدي المتاجرين به إلى عفن، يختلط فيه الحابل بالنابل، ويتساوى فيه الجيد مع قلته، والرديء مع كثرته، بسبب هرولة المشرفين على صفحات الفن وراء أخبار من يسمون يالفنانين والفنانات، حتى أصبحت هذه الأخبار تحظى بما لا تحظى به أهم أحداث العالم، من العناوين البارزة، والإخراج الملفت للنظر، ومساحات الصور الكبيرة، بدعوى الاستجابة لرغبات القراء، وكأن القراء هم الذين يوجهون الصحافة، وليست هي التي توجههم وتحاول الارتقاء بمستواهم الفكري ووعيهم الثقافي.

وبحجة إرضاء القارئ تظهر مطبوعات دورية متخصصة في هذا العفن المسمى فناً، ويا لها من دوريات كل همها هو الربح والانتشار عن طريق تقديم كل ما يخدش الحياء ويسيء إلى الذوق العام، مع أم الفن كمنتج إبداعي يرقى إلى مستويات أسمى في جوهره وأعظم في غاياته، إذا نأى بنفسه عن سفاسف الأمور وساقط القول والفعل. أما إذا وجد من لديه القدرة الفنية المكتسبة بالخبرة أو بالدراسة، فأقل ما يكون مصيره التهميش، لأن من يطفون على السطح هم أولئك المتاجرون باسم الفن، من الفاشلين والفاشلات، اللواتي يعتمدن لا على ثقافة واعية ولكن على شكل أخذ بنصيب وافر من الأصباغ، ليظهر الجمال المصنوع

وليس الجمال المطبوع، فإذا زالت تلك الأصباغ تحولت تلك الفنانة إلى تجسيد حقيقي للقبح بأسوأ صوره.

إن تكريس هذا النمط من الكتابات الصحفية لا يمكن أن يتيح للصحافة أداء رسالتها الإعلامية والتثقيفية، وإن كان يلبي رغبات بعض القراء، فهؤلاء القراء لا يمثلون إلا أنفسهم، فالقارئ الجاد إنما يبحث دائماً عن الصحف التي تحترم وعيه، وتستجيب لما هو بأمس الحاجة إليه من المعلومات الصحيحة والآراء البناءة والأفكار الجادة والأخبار الصادقة البعيدة عن الهوى والمبالغة، خاصة وأن ما يسمى بالصحافة الفنية أو الملاحق الفنية في الصحف، كل ما تسعى له هو الفن الرخيص، الذي لا يخاطب عقل الإنسان، بل غرائزه واهتماماته السطحية، لذلك فإن المستثمرين في مجال الصحافة الفنية هم في الغالب تجار يبحثون عن الربح، حتى وإن كان ذلك على حساب الأخلاق والمثل والمبادئ.

ومن مظاهر الاحتفاء بهذا النوع من الفن الرخيص، إقامة المهرجانات الغنائية، التي يتوافد إليها الناس من كل حدب وصوب، ويشدون إليها الرحال من بلد إلى آخر، وتقدم على مسارحها ألواناً من العبث المرفوض أخلاقياً، وكأن الأمة بحاجة إلى المزيد من الهزائم الأخلاقية، والنكسات السلوكية، مع أن كل ذلك في حقيقته ليس إلا نوعاً من التجارة التي يحاول بها متعهدو

هذه المهرجانات السطو على أرزاق الناس، وتهميش اهتماماتكم، والانحدار بالذوق الفني لديهم، فما يقدم في تلك المهرجانات لا يخرج عن دائرة تلك الأغاني والرقصات و(الزيطة) التي تتسم بها الموسيقى المرافقة لتلك الأغاني والرقصات. فمن يرحمنا من هذا النوع من الفن الذي تحول إلى عفن على أيدي تجار الفن ؟.

الثقافة والواقع

- هل الثقافة هل التي تصنع الواقع .. أم الواقع هو الذي يصنع الثقافة ؟

هذا السؤال يطرح إشكالية العلاقة بين الثقافة والواقع، الثقافة باعتبارها المحصلة النهائية للمعارف الإنسانية، والواقع باعتباره الأساس الذي قامت عليه تلك المعارف عبر الأزمنة المختلفة، فأفرز ألواناً للمعرفة تميزت بسمات مختلفة باختلاف كل زمان ومكان، لكنها تجتمع في النهاية لتصب في نهر الثقافة العظيم.

الثقافة تتأثر بالواقع وتؤثر فيه سلباً وإيجاباً، وهي مهما تعددت مصادرها .. تلتقي في وجدان وضمير المجتمع، لتقوم بدورها في التنوير وبث الوعي بين أفراد ذلك المجتمع، لأنها أحد روافد تقدمه وازدهاره، وأحد عوامل تحريضه على القيام بدور طليعي في مسيرة الحضارة الإنسانية، وفي هذا الإطار لا يمكن عزل الثقافة عن التفاعل مع المجتمع .. مع الواقع .. مع نبض الحياة .. ويوم تعزل الثقافة لتصبح مقتصرة على النخبة، فإن ذلك يعني إلغاء دورها أو على الأقل تهميش هذا الدور. هذا على المستوى النظري، أما على المستوى العملي فقد أصبح من

المستحيل عزل الثقافة عن التفاعل مع الواقع .. في عالم يزخر بثورة صناعية، وتقنية وعلمية غير محدودة .. تيسرت فيها المعلومات، وتوفرت فيها المعارف، وأتيحت فيها وسائل الاتصال الجماهيري .. التي تتيح للكل معرفة كل جديد في عالم اليوم .. فلم تعد الثقافة بمعزل عن الواقع، ولم يعد الواقع بمعزل عن الثقافة . فهي حصيلة الواقع، وهو وعاؤها الذي تتلون بلونه والقالب الذي تتشكل بشكله، حتى وإن تباعدت مصادرها، وتفاوتت ينابيعها بين العمق والضحالة .. وليست الثقافة انعكاساً للواقع فقط، ولكنها أحد عوامل تشكيله، ودفعه من حالة الاسترخاء والركود .. إلى حالة التيقظ، والصمود في وجه الانهزام والتخاذل واليأس والتبعية.

وإذا كانت الثقافة في السابق قد اعتمدت على فئة معينة من علية القوم، فذلك لأن مصادرها كانت محدودة ، والوصول إليها صعب، فلا يصل إليها إلا ذوي الهمم العالية، والإصرار على سهر الليالي لطلب المعالي كما يقولون، ولم تكن وسائل الحصول على الثقافة كما هو الحال الآن من اليسر السهولة، فقد كان الحال غير الحال.

ومع تعدد مصادر المعرفة ، اختفت ظاهرة أصحاب الثقافات الموسوعية، بعد أن صار التخصص متاحاً لكل من أراد، مما يسهل

دور الثقافة في الارتباط بالواقع، لأن هذا التخصص يتيح فرصة توثيق العلاقة بالواقع من خلال دراسة أبرز الظواهر السلبية في ذلك الواقع ومعالجتها، ومساعدة الظواهر الإيجابية على البروز من خلال الوسائل العلمية ذات النتائج الأكثر إيجابية وقدرة على فهم الواقع، والتعامل معه من منظور علمي متقدم، لذلك فإن الثقافة أصبحت أكثر ارتباطاً بالواقع، وتفاعلاً معه واعتماداً عليه في وجوه كثيرة . فالعلاقة بين الثقافة والواقع عميقة، وهي وإن كانت من نتاج هذا الواقع، فإنها تؤثر فيه بشكل أو بآخر، وهذا ما لا يمكن تجاهله على الإطلاق، وأي ثقافة تنسلخ من الواقع أو تتنكر له أو تتعارض مع طموحاته، هي ثقافة هجينة وغير قادرة على تحقيق الطموحات المرجوة منها، فهي في الغالب لا تنتمي للواقع، بل تنتمي لغيره، ويكون ولاؤها لهذا الغير وبالاً على الواقع ذاته، والثقافة في النهاية وسيلة يمكن للغير أن يفرض من خلالها سطوته ، ليضمن السيطرة والتبعية له من خلال ثقافته المفروضة، وهذا ما تحاوله الدول الغنية عندما تفرض ثقافتها على الدول الفقيرة، وكذلك تفعل الدول المنتصرة في تعاملها مع الدول المنهزمة.

لم تعد الثقافة رهينة مخازن الكتب .. بعد أن صنع لها العلم أجنحة قوية .. انطلقت بها إلى آفاق بعيدة، وآماد واسعة ، لتصبح في متناول عامة الناس، وتساهم في تشكيل واقع حياتهم ،

وأنماط سلوكهم ، وأبعاد تصرفاتهم، بل أصبحت أيضاً هي الوجه الحقيقي للشعوب التي يمكن من خلالها تحديد مدى التطور الذي وصلت إلى هذه الشعوب، وهي إلى جانب ذلك استثمار يمكن من أن يحقق من الأهداف مالا يمكن تحقيقه بوسائل أخرى عديدة. لقد أصبحت الثقافة ملكاً للجميع بعد أن كانت مقتصرة على خاصة الناس من علية القوم، فلا عجب أن يكون لها هذا التأثير على الواقع ، لأنها من الواقع وإليه.

ضحالة بعض المؤلفين

ما من أحد من العاملين في مجال النشر إلا ومر عليه عدد غير يسير من المؤلفات المخطوطة التي يرغب أصحابها في طباعتها ، ورغم تواضع مستواها، إلا أن أصحابها يجدون فيها ما لم يجده أكثر المؤلفين شهرة في كتبهم، وهم لذلك يصرون على طباعتها دون الإصغاء إلى من ينصحونهم بالتريث حتى تكتمل تجربتهم الكتابية، ويكتمل نضجهم الثقافي، والأسوأ أنهم يجدون في هذا النصح شيئاً من الإساءة إلى موهبتهم الموهومة وثقافتهم الضحلة، وبدلاً من ارتقاء السلم من درجاته الأولى، يريدون القفز عليه، دون تقدير لعواقب هذا القفز الذي يودي بحياتهم الثقافية إن كانوا يملكون شيئاً من مقومات هذه الحياة.

وهم بإصرارهم على هذه الرغبة الملحة في الظهور، يثبتون جهلهم وعنادهم للمضي في طريق الخطأ، ولا يترددون في الإقدام على طباعة مؤلفاتهم دون تقدير للعواقب، وهي عواقب وخيمة عليهم وعلى الثقافة الوطنية، لأنهم يمثلون هذه الثقافة أسوأ تمثيل، ويقدمون نماذج رديئة لا تمثل إلا أصحابها، ولكنها في النهاية محسوبة على الثقافة الوطنية، وهذا أمر مؤلم وتبعاته أشد إيلاما.

إن المطلوب من المؤسسات الثقافية أن تقف بحزم وصلابة في

وجه أنصاف المثقفين الذين عليهم أن يعرفوا قدر أنفسهم، ولا يعطونها أكبر من حجمها، فالطريق أمامهم طويل ، وعليهم أن يتحلوا بالصبر والمثابرة، وأن يتسلحوا بالثقافة العميقة وليس الثقافة الضحلة التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

وإذا كانت فرص النشر قد أصبحت متاحة أكثر مما كانت عليه في السابق، فإن هذا لا يعني أن يصل الأمر إلى هذه الفوضى التي تشهدها سوق الكتاب على مرأى ومسمع من يعنيهم الأمر، وهم حماة الثقافة، والقائمون على أمرها، والمدافعون عن حصونها الحصينة، هذه الحصون التي أصبحت مستهدفة من كل من هب ودب من البشر.

لقد أصبحت المطابع في كل بلد تضخ آلاف المطبوعات إلى السوق ومنها مئات الكتب، لكن هذه الكثرة لا تعني الجودة، بل أنها في الغالب تأتي على حساب الجودة، وربما ضاع الجيد وصعب تمييزه في هذا الزحام الطباعي اللاهث، لأن ظهور الكتاب له إغراء خاص لدى المهووسين بالنشر، بعد أن تيسرت وسائل الطباعة وبأرقى المستويات الطباعية الحديثة، وإن كان إغراء الطباعة لا يشكل أي أهمية لدى من يثقون بأنفسهم ويصرون على عدم ظهور كتبهم إلا بعد التأكد من جدواها.

ولعل أبرز ما ينتج عن ظهور هذه المؤلفات هو إنها تعطي وجهاً

مشوهاً للثقافة الوطنية، وصورة سيئة عن المثقفين، لأن القارئ في الخارج يحكم على مستوى الثقافة من خلال ما يقرأ من منتج ثقافي يصل إلى يديه، فإذا كان هذا المنتج هزيلاً وضحلاً فالنتيجة هي الحكم السلبي بطبيعة الحال، وهو معذور في ذلك، إذا لم يصل إليه المنتج الجيد الذي يغير وجهة نظره ويعطيه صورة حقيقية عن الواقع الثقافي، كما هو في حقيقته، لا كما تبديه تلك المطبوعات الضحلة.

والمطلوب من المؤسسات الثقافية المعنية هو التريث في النشر، واختيار الأنسب من المطبوعات، لإبرازها وإصدارها في كتب، كما أن الجهة المسؤولة عن إجازة الكتب لا بد أن تضع في اعتبارها مسألة المستوى، وأن تكون القيمة الأدبية لأي مطبوعة من الأولويات التي لا يمكن التخلي عنها لأي سبب من الأسباب، بالنسبة لأي منتج ثقافي، حيث أن هذا المنتج محسوب على الثقافة المحلية، ويمثل مرحلة من مراحل تاريخها، ولا يعقل أن تفرز هذه المرحلة التي نعيشها الآن بكل ما فيها من تقدم، هذا المستوى من المؤلفات الهزيلة التي لا تدل على أي تقدم.

وهناك عامل لا يغيب عن الأذهان ساهم في ظهور المؤلفات الضحلة بهذه الكثرة، وهذا العامل هو إحجام ذوي القدرة عن الدخول في ميدان النشر ممن لهم باع طويل في ميدان الكتابة، أو

من ذوي الاختصاص الذين ستثري مؤلفاتهم الساحة الثقافية دون شك، ومثل هؤلاء هم الذين يملكون بكتبهم القدرة على تحجيم أصحاب المؤلفات ذات المستويات المتواضعة. إنها مسؤولية لا بد أن يوليها أصحاب الشأن اهتمامهم، بل جل اهتمامهم.

رسائل جامعية

كثيرة هي الرسائل الجامعية التي تقدم لنيل درجة علمية معينة، وكثيرة تلك هي الرسائل الجامعية التي يمكن أن يستفاد منها عند ظهورها، بإتاحة الفرصة لتنفيذ ما تشمله من مرئيات وتوصيات تخدم الصالح العام، وتسهم في دفع عجلة التنمية إلى الأمام . لكن تلك الرسائل تحفظ وتنتهي إلى ملفات الجامعة إثر حصول الباحث على الدرجة العلمية المطلوبة ، لتضاف إلى عشرات بل مئات الرسائل الجامعية التي لا يُلتفت إليها ولا تجد من يعتني بها العناية اللائقة من المؤسسات والمراكز البحثية أو الإستشارية، ولن تجد من يبعثها من مرقدها وينفض عنها غبار الإهمال ليستفاد منها في مجتمع هو بأمس الحاجة إلى جهود كل أبنائه، وبالذات في مجال البحث العلمي، وتظل الرسائل الجامعية رهينة الأدراج أو الرفوف إلى أن تنتفي فائدتها العلمية، وتنتهي صلاحيتها لمواكبة التنمية، بعد أن يتجاوزها الزمن نتيجة المستجدات التي تطرأ على موضوعاتها ، فتصبح غير صالحة للاستفادة منها بأي شكل من الأشكال.

وهذا جانب من مشكلة أعم وأشمل هي قصور الجهد الأكاديمي عن استيعاب تطلعات التنمية، واعتماد هذه التطلعات على بيوت ومراكز الدراسات الاستشارية .. التي لا تنتمي إلى

الجامعات ولكن إلى القطاع الخاص، وإن اعتمدت في الدرجة الأولى على الأكاديميين في تقديم دراساتها الاستشارية المختلفة.

وهذا الاتهام الموجه للجهد الأكاديمي رغم غرابته، فإنه لا يبتعد عن الواقع، ويمكن تسجيل الملاحظات التالية لدعم هذا الرأي:

- عزلة الأكاديميين عن المشاركة في النشاط الثقافي والاجتماعي العام.
- اقتصار نشاط الأكاديميين على دراساتهم وأبحاثهم التي يجنون ثمارها مباشرة باعتبارها وسيلتهم للترقية الأكاديمية.
- عدم إلزام الأكاديميين بطباعة رسائلهم العلمية، حتى تلك التي توصي لجان المناقشة بطباعتها، وهذه بالذات يجب أن تتولى الجامعة مهمة طباعتها تنفيذاً لتوصية لجان المناقشة.

وعوداً على بدء فإننا عند المطالبة بطباعة الرسائل الجامعية ، لا ننسى أهمية الانتخاب الأفضل لبعض تلك الرسائل وليس كلها ، فليست كل الرسائل الجامعية مفيدة للمجتمع أو التنمية الوطنية أو التقدم العلمي، لكن الضرورة تحتم الاختيار الأنسب للرسائل ذات الموضوعات المؤثرة .. للعناية بها وطباعتها والاستفادة من مضمونها ، وإتاحة الفرصة لتداولها على أوسع نطاق تعميماً للفائدة .. وتحقيقاً للتواصل بين الجامعة والمجتمع ، وهذا التواصل قائم على أكثر من صعيد باعتبار الجامعة جزء من المجتمع الذي تتواجد في رحابه.

ومسؤولية طباعة الرسائل الجامعية لا تقع على الجامعات فقط، بل هي مسؤولية مشتركة بين الجامعات وأصحاب تلك الرسائل ودور النشر والمؤسسات الثقافية المعنية الحكومية والأهلية، حتى لا تبقى تلك الرسائل مجرد حبر على ورق .. كل أهميتها تقتصر على نيل أصحابها الدرجة العلمية المطلوبة.

إن كنزاً ثميناً من الفكر والثقافة والعلوم تضمه الرسائل الجامعية المهملة، والأجدر بالمجتمعات النامية أن تستفيد من نتاج عقول أبنائها، وتستثمر جهودهم البحثية فيما يعود بالنفع والفائدة عليها، وعلى البشرية بصفة عامة . وما هذه الجهود سوى مساهمة جادة في صنع الغد الأفضل للإنسان، وإنقاذ البشرية من ويلاتها المزمنة.

الرهـــان الأجـــدى

لا يزال بعض الكتاب العرب يقيمون الدنيا ولا يقعدونها حول قضايا ثانوية، لا ترقى في حقيقتها إلى مستوى الأهمية التي يمثلها النضال العربي الفلسطيني ضد الاحتلال الإسرائيلي الغاشم وجنرالاته الإرهابيين على اختلاف مسمياتهم، كما لا يزال بعض الكتاب العرب مشغولين بقضايا محسومة منذ قرون، أو أن الزمن كفيل بحسمها دون الحاجة إلى اجتهادات هؤلاء الكتاب الذين نذروا أنفسهم للانشغال بكل ما هو ثانوي وهزيل . لا ليسدوا فراغ عقولهم بهذه الاهتمامات الثانوية فقط، بل أيضاً ليدفعوا القارئ إلى مهاوي الانهزام والتسطح والسلبية.

ما يجري على الساحة الفلسطينية ملحمة يدرك روعتها المواطن العربي العادي، فكيف يتجاهلها الكتاب الباحثون عن هوية الانتماء لهذه الأمة، هذه الملحمة يسطر حروفها أطفال الحجارة، وهم يواجهون بصدور عارية آلة الحرب الإسرائيلية المدعومة بترسانة الحرب الأمريكية، وما يقوم به أطفال الحجارة إعجاز وإبداع يعيد التوازن إلى العقل العربي الذي أربكته الأحداث، وأزعجته المقاومة التي تحيط به من كل حدب وصوب، فتاه من العرب من تاه في وديان التطبيع والاستسلام، وقاوم منهم

من قاوم في جبهة الصمود والنضال، وتردد منهم من تردد، فلا هو من هؤلاء ولا من هؤلاء.

وأمام كل هذه الأحداث الجسام يقف بعض الكتاب العرب صامتين حيال قدسية نضال أطفال الحجارة وشرعيته، عاجزين تارة، ومهرولين تارة أخرى خلف سراب السلام المزعوم.

للكلمة دورها في دعم نضال الشعوب، وترسيخ قيم المقاومة، وتحريض الشرفاء على رفض الاحتلال بكل ألوانه وأشكاله، فهي سلاح فعال يشهره الأدباء في وجه الطغيان والظلم، وكم تحررت شعوب زرعت الكلمة المسؤولة في نفوسهم نزعة المقاومة ، والرفض لكل أصناف التعسف والظلم والاستكبار . وسواء جاءت هذه الكلمة على لسان زعيم وطني بارز، أو أديب وطني معروف، فإنها في الحالتين ترسم آفاق المستقبل المشرق، لتنير في آخر النفق المظلم ضوء الأمل الواعد بالنصر المبين.

وإذا كنا نلوم بعض الكتاب وهم الأغلبية مع الأسف الشديد الذين يتجاهلون المقاومة الفلسطينية وأطفال الحجارة، وما أفرز ذلك كله من أدبيات هي ملء السمع والبصر، فإننا في الوقت نفسه نشد على أيدي هؤلاء الذين اهتموا بالمقاومة وأدبياتها، وهم قلة مع الأسف الشديد، لكنهم كالنجوم الساطعة في السماء المدلهمة بغيوم اليأس والقنوط . ونذكر بالتقدير هنا الأستاذ رجاء

النقاش الذي عرف القارئ العربي بأدب المقاومة، وكذلك الدكتور حسام الخطيب الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي، الذي يعتبر الأدب الفلسطيني هو واجهة الأدب العربي في سجال العالمية، مؤكداً توافر مقومات العالمية الأدبية في النتاج الأدبي الفلسطيني المعاصر، وكل هذه المؤشرات وغيرها مما يصب في نفس الاتجاه، قد أكدها الخطيب في محاضرته التي نظمها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، وكانت بعنوان (الأدب الفلسطيني واجهة الأدب العربي في سجال العالمية).

وعندما نذكر النقاش والخطيب على سبيل المثال، فإننا لا ننسى تلك الكوكبة الرائعة من أدباء العربية الذين اهتموا بالمقاومة وأدبياتها، وبالدرجة نفسها اهتموا بتسليط الأضواء على ما يجري في الأراضي العربية المحتلة من ممارسات تفوق أي احتمال، وتبرز الوجه القبيح للإرهاب الإسرائيلي المعلن على رؤوس الأشهاد.

أجهزة الإعلام العربية مطالبة أيضاً بالمزيد من الاهتمام بهذه القضية، وتوجيه كتابها لهذا المنحى الذي تفرضه المرحله الراهنة من تاريخ الأمة وهي تمر بهذا المنحنى الخطر من تاريخها المعاصر، فلو أحصينا ما يكتب أو يقال عن الفن المتدني لوجدناه يفوق بكثير ما يكتب أو يقال عن المقاومة وأدبياتها، وهذا في نظر

العقلاء سوء تقدير، ما بعده سوء تقدير. خاصة بعد أن ثبت للجميع أن أبطال الحجارة هم الرهان الأجدى لمواجهة وكبح الاحتلال الإسرائيلي الغاشم، وتغيير النظرة السلبية التي يحاول الأعداء فرضها عن ثورة الحجارة.

التكريم بين الواجب والمسؤولية

مما يستحق الإشادة أن يحظى المواطن بالتكريم في أي موقع من مواقع العمل الوطني .. وجاءت خطوة المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث لتكريم أعضائه السابقين لتؤكد أن هذا الوطن المعطاء هو الميدان الذي يتبارى فيه المواطنون للعمل المتميز، لأنهم على يقين تام بأن هذا العمل المتميز لابد أن يحظى في النهاية بما يستحقه من التقدير والتكريم . وإذا كان أعضاء المجلس السابقين قد حققوا الريادة في الميدان الذي اختارته الدولة لهم وهو ميدان الثقافة والفنون والتراث، فإنهم دون شك يحفظون لهذا الوطن وقادته أياديهم البيضاء، لا عليهم فقط ولكن أيضاً على الثقافة والفنون والتراث التي يمثلها أعضاء المجلس سواء في تشكيله السابق أو الحالي.

وتكريم المبدعين في أي مجال من مجالات الإبداع في العمل الثقافي أو العمل الوظيفي هو محرض قوي للمزيد من الإبداع في كل المجالات . وتاريخ قطر الثقافي سجل بأحرف من نور الخطوات الأولى لرواد الثقافة في قطر، ممن استطاعوا أن يحفروا أسمائهم في ذاكرة الزمن، وفي وقت قلّت فيه الإمكانيات وندرت فيه عوامل التحفيز، بل كثر فيه الإحباط، لكن كوكبة

فـريدة من شـبــاب وشـابات هـذا الوطن أصــروا على ولوج عـالم الثقافة في الصحـافة والإذاعـة والتليفزيون، وسطروا على مشهد من التـاريخ سطوراً مـضيئة مـن العمل الـريادي المتمـيـز رغم قلة الإمكانيات إن لم نقل انعدامها في بعض الأحيان.

فكم شـهدت أروقـة الإذاعـة والتلفـزيون جهود أؤلئك المخلصين من شـبـابنا وشـاباتنا، وكم شـهدت مكاتب الصـحف الأهلية جهود أؤلئك المبـدعين من كتاب وفنانين تشكيليين، وكم شهدت مكتبـاتنا بواكيـر المؤلفات الشعرية والقصصية التي اسـتقبلت بحفـاوة النقاد وترحيب القراء، وكم شهدت خشبة مسرح نجمة طلائع المسرحيين القطـريين في التـمـثيل والإخـراج والكتـابة المسـرحـيـة . كل أولئك الفـرسـان الذين نالـوا قصب السـبق كل في مـيدانه، لابد من ذكر جـهـودهم، وتقـدير تلك الجـهـود التـي لا يمكن أن ينسـاها تـاريخ الثقافة في قطر، لأنها وبكل بساطة هـي الأساس لهذا التاريخ، ولا يمكن أن ننسى أبداً أولئك النفر من إخواننا العرب الذي ساهموا بجهـد وافـر في دعم تلك البدايات، سـواء من كـان منهم من مصـر أو الأردن أو السـودان أو تونس أو غـيـرها من البـلاد العـربية، فإن لكل منهم جهده الذي يذكر فيشكر.

ومـا أريد قـوله هـو إن تلك الأعـلام البـارزة فـي تاريخنا الثقـافي لابد أن تكرم، وأن تحظى بمـا تسـتـحـقــه من عناية الدولة واهتمامهـا، فالتكريم ليس واجباً فقط، ولكنه أيضـاً مسؤولية تضع

المكرمين أمام تحديات المزيد من الإنتاج المتميز، وهذه المسؤولية لها دورها الفعال في مجال البناء التنموي الشامل، لأنها نابعة من وعي كامل بمعطيات هذا التكريم وحيثياته . وقد لا نستطيع الإلمام بأسماء تلك الكوكبة الرائعة من رواد الثقافة في قطر، لكن هذا الأمر لن يكون صعباً على المسؤولين، خاصة في المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث الذي بدأ هذه الخطوة بتكريم أعضائه السابقين، ومن واجبه أن يواصل السير في هذا المجال بالالتفاف لأولئك الرواد، والاستعانة بهم في أعماله، ومنحهم ما يستحقون من التكريم بأي وجه من وجوهه.

ونحن ندرك تمام الإدراك أن رئيس المجلس وأمينه العام خير من يقدر هذا الأمر. لذلك فإن ما لدى المجلس من مشاريع في هذا المجال جديرة بأن ترى النور، وخاصة ما يتعلق منها بالجوائز التقديرية أو التشجيعية، أو ما شابهها من أساليب التكريم والتقدير لكل المجتهدين والمخلصين في أعمالهم، من كتاب وشعراء وقصاصين وفنانين ومسرحيين وتشكيليين وغيرهم، لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء.

جمالية النص

تثار بين آونة وأخرى مسألة جمالية النص ومدى تأثيرها على تجنيس النص الإبداعي، من حيث انتمائه لشكل أدبي معين دون غيره، وما يقال عن (القصة القصيدة) غير بعيد عن هذا المعنى، ونذكر القصة كمثال على توظيف جمالية النص بشكل لا ينحرف به عن انتمائه الحقيقي.

و (القصة القصيدة) كمصطلح أدبي حديث، لا علاقة لها بالشعر القصصي الذي عرف الأدب العربي القديم والحديث نماذج متفرقة منه .. ولكنه يعني غلبة جمالية الشعر على عناصر القصة سواء بشكلها التقليدي الصارم أو الحديث المتمرد، أو حتى التجريبي الذي لا يلقى استحساناً من كثيرين بسبب افتقاره لأي عنصر من عناصر القصة.

وطغيان أسلوب الشعر على القصة يقربها أكثر لما يسمى بقصيدة النثر، ذلك اللون الأدبي الهجين الذي يرفض الانتماء للنثر، وهو المطرود من مملكة الشعر، وهذا الطغيان للأسلوب الشعري على القصة، قد يفقدها بعض أو كل عناصرها، وبالتالي يفقدها هوية الانتماء للفن القصصي، ومع ذلك فإن العملية الإبداعية تعني عدم تجاهل جمالية النص، حتى لا يقترب

الأسلوب الأدبي من أسلوب التقارير الإدارية، ويفقد جاذبيته واستحواذه على مجامع القلوب والعقول لدى المتلقين، وهذا ما يميز الأدب عن غيره من أنواع الكتابة الأخرى، لكن المحافظة على جمالية النص لا تعني نسيان أن القصة لها عناصرها المعروفة، وفي إطار هذه العناصر يمكن تلوين النص القصصي بما تقتضيه الضرورة الفنية، التي تختلف من كاتب لآخر، حسب ما يتوفر لديه من أدوات الإبداع، وشروطه المختلفة.

إن القصة تحتاج إلى جمالية الأسلوب للمحافظة على جمالية النص، لكن ليس إلى درجة تطمس معالمها، وتحيل النص إلى كتابة وجدانية خالية من الفكر، ولا تترك أي أثر نفسي لدى المتلقي، ولا تثير أي نوع من الأسئلة التي ترغم المتلقي على إعادة صياغة النص وفق رؤيته الذاتية وثقافته الخاصة.

وكما أن (قصيدة النثر) مصطلح لا يزال يبحث عن مرفأ، بعد أن تخلى عنه معظم رواده، فأنني أرى أن (القصة القصيدة) هي أيضاً مصطلح لا يزال يبحث عن مرفأ.

والخلط بينهما هو خلط في المفاهيم .. لا يؤدي إلى نتيجة، ولا يخدم حركة الإبداع، ولا يضيف شيئاً جديداً، فماذا يضيرنا لو سمينا الأشياء بأسمائها المعروفة، ولم نلبسها أقنعة مستعارة ؟ .

وفي السياق العام لا يمكننا أن نتجاهل دور جمالية النص في

حد ذاته، وتأثير ذلك على المتلقى، دون أن تنحرف هذه الجمالية بالنص عند لونه الأدبي، وكثيراً ما يخلب ألبابنا جمال اللغة، ورقة العبارة، وشفافية التعبير، وعمق الفكر، وشمولية المعنى، فالأسلوب المجنّح يرتقي بالنص إلى معانقة الأحاسيس والمشاعر، ويفتح أمامه آفاق التأثير العميق على الملتقى ما دام في إطاره الخاص، وكل هذه الأدوات هي سر نجاح قصيدة ما، أو قصة ما، عاشت في الأذهان قرونا دون أن يطرأ عليها ضعف أو قصور، بل إن الزمن يزيدها تألقاً وقوة، وعندما نقول إن هذا النص جميل، فإن هذا الجمال لا يقتصر على الشكل، ولكنه يتعداه إلى المضمون لتتضافر عوامل النجاح وتتيح له فرصة البقاء، لذلك فإن جمالية النص الإبداعي تصبح ضرورة لا ترفاً فنياً، ما دام يحافظ على انتماء هذا النص لجنسه الأدبي المعروف، أما ما يقدم على الساحة الإبداعية من ألوان شعرية أو قصصية هلامية غير واضحة المعالم بحجة التجريب، فإن ما يُضفي عليها من تزويق .. لا يلبث أن يزول، عندما تصهره حرارة النقد الموضوعي الذي يميز بين الغث والسمين، مما لا يأخذه بعين الاعتبار أولئك الذين يجنحون إلى هذا النوع من التجريب المرفوض ، لأنه يتنافى مع الذائقة الفنية التي اعتادها المتلقي العربي وتربى عليها مزاجه الفني، حتى أصبحت جزء من شخصيته.

وكما أن لكل مبدع لغته الأدبية الخاصة مما لا يسمح بفرص

تصورات وقيود على النص من خارجه، فإن بعض من يتعاطى الإبداع الأدبي يستغلون هذا الهامش من حرية الاختيار في الكتابة، لتقديم نماذج إبداعية تحرص على تجاوز الكثير من المفاهيم التي لم تشكل في يوم من الأيام عائقاً للإبداع عند المبدعين الحقيقيين، لا مدعيي الإبداع العاجزين عن فهم شروطه، وممارستها بمرونة واقتدار.

لذلك نقول نعم لجمالية النص، ولا لانحرافه عن مساره المعتاد.

حين يتلوث القلم

يتلوث القلم حين يتلوث الفكر، ويصبح واضحاً تفضحه قراءة ما بين السطور، وجلياً يبرزه مجرد التفكير في هدفه وغايته، والأمر هنا لا يحتاج إلى ذكاء نادر، لأن درجة الوعي لدى القارئ أصبحت في المستوى الذي يتيح له فك رموز وطلاسم معظم الكتابات ذات الصياغات الملتوية، ومتى ما أصبح الفكر الذي يخطه القلم ملوثاً، فإن هذا التلوث ينتقل تلقائياً إلى القلم، من هنا تأتي تلك العبارات التي نقرأها أو نسمعها: هذا القلم نظيف كتعبير عن استقامة ما يخط من أفكار، أي استقامة صاحب هذه الأفكار، وكذلك: هذا قلم ملوث .. كتعبير عن اعوجاج ما يخط من أفكار، أي اعوجاج صاحب هذه الأفكار.

والاستقامة أو الاعوجاج في الفكر اتجاهان يسهل اكتشافها لدى هذا الكاتب أو ذاك، فالذي يريد أن يبني غير الذي يريد أن يهدم، والذي يريد أن يصلح حتى وإن قسى، غير الذي يريد أن يفسد حتى وإن داهن وتملق ورأى الشحم فيمن شحمه ورم، والأسوأ هو إدراكه أنه يسير في الطريق الخطأ، لكن رغبته في تحقيق أي مكسب تدفعه لأن يغمض عينيه، وهو يسير في الطريق الخطأ، ليقع في النهاية في مالا يحمد عقباه.

الكاتب هنا لا يأخذ في الحسبان وعي القارئ، ولا مسؤوليته ككاتب تجاه هذا القارئ، والنتيجة هي أن يفقد القارئ ثقته بكاتبه هذا، خاصة إذا تكررت سقطاته، فأصبحت ظاهرة تطبع كل ما يكتب بالمهانة والخنوع، مع علمه بأن سمو الهدف أهم مكسب للكاتب، وأقصر طريق لكسب ثقة القارئ.

لقد حفر الكتاب الشرفاء أسماءهم في ذاكرة التاريخ، أما المتطفلون على مائدة الكتابة، فإن مآلهم إلى النسيان بعد سقوطهم في مزبلة الإهمال . وتلوث القلم لا يأتي من فراغ، بل هو نتيجة حتمية لظروف دون غيرها، استطاعت أن تؤثر على الكاتب وتدفعه إلى إرتكاب هذا النوع من المغالطات حين يقدم لقرائه بضاعة رديئة مزجاة على أنها بضاعة حسنة، وفي سبيل ذلك قد يلبسها أثواباً براقة أو يلفها بورق الزينة، لكن رائحة الكتابات الرديئة لا تلبث أن تفوح لتفضح صاحبها وتفضح من يقف وراءه.

وإذا جرت بعض وسائل التثقيف الجماهيري خلف هذا النوع من الكتابات الرديئة ليبرز أصحابها، فتفسح أمامهم مجالات النشر الواسعة، فهي ترتكب خطأ فادحا لأن القارئ يمكن أن يفرق بين الغث والسمين .. بين البضاعة المغشوشة والسليمة.

في كل زمان ومكان يوجد المتطفلون على مائدة الأدب، لكن

الحقيقة الراسخة أن الذي يبقى هو ما ينفع الناس، أما الزبد فيذهب جفاء . وهذا من لطف اللّه بخلقه، لأن ثرثرة مدعي الأدب لو قدر لأصحابها أن يواصلوا ثرثرتهم لتسببوا في صداع رؤوس القراء الذين لا ذنب لهم سوى أنهم اختاروا وسيلتهم الإعلامية من باب الثقة لا غير، فإذا هي تقدم لهم هذه النماذج السيئة من الكتاب.

وحين يتلوث القلم بالمراوغة أو الرياء، فإن الكاتب هو الخاسر مهما كانت مكانته، لأن القارئ لن يقبل إلا على الكاتب الجاد الذي يناقش همومه ومشكلاته، على المستوى الإنساني العام.

السينما والثقافة

- يقول أحد الكتّاب عندما زار هوليود:

"حديثنا عن السينما الهوليودية عموماً لا يعني أننا نحسن الظن بها، لأن هوليود وهي المركز الرئيسي لصناعة السينما في العالم .. تتحرك في إطارين أحدهما أسوأ من الآخر بالنسبة لشعوب الدول النامية، أولهما أنها تسلب جيوب الفقراء قوت يومهم لتضخ سنوياً مليارات الدولارات في الخزينة الأمريكية بواسطة شركات توزيع الأفلام، وهذه المليارات تتراكم على حساب اقتصاد الدول النامية وبطرق نظامية لا غبار عليها، وثانيهما هو محاولة طمس هوية هذه الشعوب، وإعادة صياغة نمط حياتها وفق المفهوم الغربي، بعد تفكيك مجتمعاتها وتهيئتها لقبول السلوكيات التي تهمش الثقافة الأصيلة وتغرق المجتمع في موجات عاتية من الممارسات الشاذة، في مجالات العنف والجنس والكوميديا الرخيصة، وأنساق أخرى ذات توجهات أيديولوجية معروفة لغرس الاتجاه لممارسة الموبقات والتحريض على ارتكاب المعاصي".

لكن ماذا تقدم السينما الأمريكية للثقافة ؟

إنها بمنتهى الوضوح تكرس الكثير من القيم السلبية، ولا تتردد

عن تشويه حضارات الأمم والشعوب كما هو الحال بالنسبة للعربي والمسلم في السينما الأمريكية، بل أنها تقدم من الأفلام ما يحرض على الجريمة والعنف من خلال الإنتاج السينمائي الضخم، وتفتح المجال أمام المجرمين والمغامرين لتقليدها، في تفجير المنشئات العملاقة، وإغراق السفن الضخمة، والسطو المسلح، وممارسة العنف بأبشع أنواعه وصوره، وما تشهده المدن الأمريكية الكبرى ليس سوى شهادة ضد الفيلم الأمريكي المغرم بإظهار الفرد الأمريكي في مظهر (السوبر مان) الذي لا يقهر.

والإنتاج السينمائي المكثف، والمسيطر على أسواق السينما في العالم بواسطة شركات التوزيع العملاقة، زاحم دون شك الإنتاج السينمائي الأوروبي، ولم يترك له فرصة الظهور، بل أن إنتاج دول آسيا السينمائي لا يجد فرصته أمام هذه الهجمة الشرسة من الإنتاج السينمائى الأمريكي وسيطرته على أسواق السينما في العالم، وسواء كان ذلك في أوروبا وتحديداً في فرنسا وإيطاليا أو في آسيا وتحديداً في اليابان والصين والهند وإيران، فإن الإنتاج السينمائي في هذه الدول له حضوره في المهرجانات السينمائية العالمية، فهو إنتاج يحاول تعريف . الثقافة في تلك الدول للعالم، لكن السينما الأمريكية تحاول القضاء على ثقافات العالم، لتبقى الثقافة الأمريكية هي المسيطرة، فهي المنتجة وعلى العالم أن يستهلك.

هذا المفهوم الاستعماري البغيض المسيطر على أفلام هوليود، هو امتداد للمفاهيم الاستعمارية البغيضة التي تتعامل بها أمريكا مع غيرها من دول العالم، وهي في سبيل ذلك لا تعنى بمشاعر الآخرين حيالها، لأنها تتحدث من منطق القوة الغاشمة، والسيطرة على العالم.

لكن لماذا تظل المؤسسات السينمائية وشركات توزيع الأفلام في عالمنا العربي رهينة لسطوة نفوذ شركات توزيع الأفلام الأمريكية، وأمامها شركات توزيع عالمية كثيرة في العالم، هل هو الإقبال على الفيلم الأمريكي من قبل الجمهور الذي لا يجد أمامه غير هذه الأفلام ؟ أم هي التبعية الثقافية التي هي امتداد للتبعية الاقتصادية والعسكرية وغيرها من أشكال التبعية لأمريكا ؟

وما دامت السينما الأمريكية لا تقدم سوى هذا الإنتاج الهادف إلى إشاعة الجريمة والجنس والعنف، فلماذا يعرض هذا الإنتاج في البلاد العربية والإسلامية، مع أن بعض هذه الأفلام يمنع عرضها في أمريكا نفسها ؟

أسئلة تبعث على الحيرة، ولا تجد الإجابة إلا عند الراسخون في علم الانهزام وفن التخاذل . والله المستعان.

القصة والتسجيل الفوري

هل صحيح أن القصة القصيرة هي ومضة تسجل في حينها ؟

في اعتقادي أن هذا الطرح صحيح، ولكن إلى حد ما، وذلك لأن القصة القصيرة ومضة في فكرتها، لا يملك القاص إلا أن يستجيب لها، ويسارع إلى تسجيلها، وإن لم يكن تسجيلاً كاملاً، لكنه شامل لكافة الإيحاءات الواردة إلى الذهن، أو لنقل أغلب تلك الإيحاءات . وفي هذه الحالة قد يعود الكاتب لإكمال النص القصصي أو لا يعود، لكنه في الحالتين لا يملك غير الاستجابة لتلك الومضة الأولى التي قد تتمخض عنها قصة ناجحة.

لكن هل هذا هو الحال بالنسبة للقصة الطويلة أو الرواية ؟ أعتقد أن الأمر مختلف، بل أكاد أقول إن القصة القصيرة نفسها وإن كانت ومضة في فكرتها، فهي ليست كذلك في بقية عناصرها، فهذه الومضة ليست آنية ووليدة اللحظة، بل هي إفراز مفاجئ لمخزون ثقافي وتراكم فكري امتد عبر سنوات، لأننا إذا اعتبرنا القصة القصيرة مجرد (ومضة تسجل في حينها) استجابة لأي حدث طارئ، فإننا في هذه الحالة نحيلها إلى كتابة تسجيلية أو خبر، وهذا يخرجها من دائرة القصة.

إن أحداثاً عظيمة في تاريخ البشرية كتبت قصصها أو رواياتها بعد عشرات وربما مئات السنين، ولا تزال تلك الأحداث ميداناً

خصباً لإبداعات المبدعين، وأقرب مثال لدينا أحداث (الغوص) وهي مهنة انتهت في الأربعينات مع ظهور الؤلؤ الصناعي في اليابان، إلى جانب عامل آخر حسم الموقف لغير صالح (الغوص) عندما تم اكتشاف النفط في منطقة الخليج . وبعد مرور كل هذه السنوات .. لا زالت حكايات الغوص وأحداثه مرتعاً خصباً للشعراء·وكتاب القصة وغيرهم من المبدعين في فنون أخرى مثل المسرح والفن التشكيلي والغناء.

والروايات الكبرى التي أثّرت تاريخ الأدب العالمي، وأثّرت على مجتمعات كثيرة، أقول إن هذه الروايات كتبت عن أحداث سابقة، لأن الروائي لا يعني بكتابة تلك الأحداث كتابة تسجيلية كما يفعل المؤرخ، فهو فنان يعيد صياغة الأحداث من وجهة نظره بصرف النظر عن مطابقتها أو عدم مطابقتها للواقع . وهذا ما يفسر كون التاريخ منطقة مستباحة لكتاب القصة والرواية، يأخذون من أحداثه ما يشاءون، ليكتبوا عنها ما يريدون، دون حرج من الخروج على شروط الكتابة التاريخية.

ثم إن الفن لا يعني تسجيل الواقع تسجيلاً (فوتوغرافياً) بل هو استجابة شعورية لبعض الظواهر، التي يدركها الفنان بدرجة من الحساسية لا تتوفر لسواه، وهو يعيد صياغتها لتستجيب للشروط الفنية التي يفرضها لونه الفني في إطاره العام.

ومهما تقادم العهد بالأحداث الكبرى التي غيرت وجه التاريخ، فإن هذا التقادم لا يلغي أهميتها الفنية باعتبارها مصدراً من مصادر الإلهام للفنان، وأقول الإلهام لأنها تنطوي على أحداث إنسانية تتصارع في نفوس أبطالها مشاعر الخير والشر، وعواطف الحب والكراهية، وأحاسيس الانتصار والهزيمة . وهذه المشاعر والعواطف والأحاسيس تشكل مصدراً خصباً لإثراء النص الإبداعي بعوامل النجاح التي تقربه من فهم وإدراك وتفاعل المتلقي.

وإذا اعتمدت الرواية على مساحة أكبر من الزمان والمكان، واستوعبت فضاءات أوسع للأفعال والأقوال، فإن القصة القصيرة بناء تتجمع فيه كل العناصر وبشكل متوازن ومتقن ومكثف، وقد يغيب الحدث عنها لكنها تمسك بتلابيب جزء منه كنواة تشبه نواة الضوء المركزية التي تحمل شحنة كهربائية موجبة، وحولها مدارات الكترون تنداح جزيئاته شيئاً فشيئاً، فإذا اتسعت دوائر الالكترونات، نرى البعيد منها عن النواة أكثر طاقة وقدرة على توليد الضوء، وهو هنا ضوء المتعة الإبداعية في حالتي العطاء والتلقي.

أثر الصحافة في
تفعيل الحركة الثقافية والإبداعية

ساهمت الصحافة على امتداد تاريخها الطويل في تفعيل وتنشيط الحركة الثقافية والإبداعية، وقد اعتمدت الصحافة في بدايتها الأولى على الثقافة والإبداع لملء صفحاتها قبل أن يتطور المفهوم الإعلامي للصحافة، وتعرف فنونها الجديدة مثل الصور والأخبار والاستطلاعات الصحفية ومتابعة الأحداث، اعتماداً على وكالات الأنباء أو مراسليها المختصين المنتشرين في أكثر من موقع في العالم، ودخلت الصحف في منافسة غير متكافئة مع محطات الإذاعة والتلفاز في البحث عن الأخبار والانفراد بها، وهي منافسة لم تكن نتائجها في صالح الصحافة، مما دعاها إلى البحث عمّا وراء الأخبار.

وكانت جل صفحاتها مقتصرة على الأدباء والكتاب المبدعين، دون أن تولي العمل الصحفي الميداني أي اهتمام، لذلك فقد عرف معظم الأدباء في العالم أول ما عرفوا عن طريق الصحافة، حيث كانت صفحاتها ميداناً لصولاتهم وجولاتهم، ومناقشاتهم حول شؤون الثقافة والإبداع، وكذلك شؤون الحياة، وبذلك استطاعت الصحافة أن تساهم بشكل مباشر في تفعيل الحركة الثقافية والإبداعية، ومهدت الطريق لظهور عدد كبير من المثقفين

والمبدعين الذين لولا الصحافة لما قدر لهم الظهور، كما كانت منبراً للمثقفين والأدباء الذين بدأوا بنشر إنتاجهم في الصحافة قبل ظهوره في مؤلفات كان لها صداها الواسع في حركة النشر في العالم العربي، ولا تزال أمهات الكتب في الأدب العربي المعاصر والتي نشرت قبل ذلك في الصحف .. خير شاهد على ما ذهبنا إليه في هذا المجال . كما هو الحال لمؤلفات د. طه حسين والعقاد والحكيم والمازني والدكاترة زكي مبارك وغيرهم.

وإذا كانت الصحافة قد خدمت الثقافة والإبداع، فإن الثقافة والإبداع قد ساهما في تطوير وانتشار الصحافة، وقد كان القراء ينتظرون بفارغ الصبر الحلقات الجديدة من الروايات التي كانت تنشر مسلسلة في بعض المجلات، وهذا لا يقتصر على القراء في نفس البلاد التي تصدر فيها المطبوعة، بل يتعدى ذلك إلى الدول الأخرى البعيدة، وقد كان القراء في الدنيا الجديدة ينتظرون السفينة القادمة إليهم من إنجلترا عبر المحيط ليتابعوا الحلقات التي كانت تنشرها من روايات تشارلز ديكنز، ولا زال بعض القراء يربط اهتمامه بالمطبوعة الصحفية بكتابها من المثقفين والمبدعين، ولعل هذا هو سر شغف بعض القراء بصحف دون سواها.

ورغم تطور مفهوم العمل الصحفي، فلا زالت معظم الصحف إن لم نقل كلها تفرد صفحات معينة لنشر كتابات المثقفين والمبدعين في صفحات الرأي وصفحات الأدب، التي تركز على متابعة الحركة الإبداعية شعراً ونثراً، لكن المؤسف أن نرى العناية

بالصفحات الثقافية قد بدأ يتضاءل في بعض الصحف، وغالباً ما يكون ذلك بسبب ضعف ثقافة المشرفين على الصفحات الثقافية في تلك الصحف، وهذا ما يفسر نجاح الصفحات الثقافية التي يشرف عليها بعض المثقفين والأدباء، وبالمقابل فشل الصفحات الثقافية التي يشرف عليها من لا علاقة لهم بالثقافة أو الأدب، مما يعني أن علاقة الصحافة بالثقافة والإبداع هي علاقة متمازجة، حتى بالنسبة للصحف السيارة وليس للصحف المتخصصة، فقط كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

وتفعيل الصحافة للثقافة لا يأتي فقط من باب انتماء بعض الأدباء والمثقفين للصحافة، بالكتابة الأسبوعية أو اليومية، بل أيضاً بحرص هذه الصحافة على متابعة وطرح ومناقشة القضايا الثقافية والأدبية، والتواصل مع الحركة الإبداعية في العالم بنقل أخبارها، وتناول تياراتها الجديدة بالبحث والمناقشة، ولا ننسى مسؤولية الصحافة تجاه الثقافة الوطنية والأدب المحلي، وذلك من خلال التعريف ومناقشة الظواهر والمؤثرات والروافد لهذه الثقافة وهذا الأدب، وهذا من صميم واجبها الثقافي والإعلامي أيضاً، حيث يتوفر للصحافة من الانتشار ما لا يتوفر للكتاب الذي بدأ الاهتمام به يتراجع نتيجة تعدد وسائل التثقيف، وانتشار وسائط الاتصالات السريعة، وإن بقى له ألقه عند المهتمين بالثقافة والإبداع، الذين يجدون في الكتاب ما لا يجدونه في غيره من المتعة الذهنية والراحة الوجدانية.

الحاسوب والكتاب

ازدهرت صناعة الكتاب في العصر الحديث كما لم تزدهر في أي عصر مضى، وأصبح لها أساطينها المعروفين، كما أصبحت دور النشر ممتدة الفروع إلى أقصى بقعة من عالم اليوم، كما أصبحت هذه الصناعة تساهم في تنشيط الاقتصاد الوطني، لأنها تعتبر أحد مصادر الدخل لبعض الدول المهتمة بصناعة الكتاب وتصديره، مع الأخذ بعين الاعتبار ما تتطلبه صناعة الكتاب من روافد لا تقل أهميتها الاقتصادية عن الكتاب نفسه، مثل صناعة المطابع والورق والأحبار وغيرها من لوازم الطباعة، وهذه الصناعات لها كياناتها وتضم أعداداً ضخمة من العاملين من إداريين وفنيين وعمال.

لذلك فلا غرابة أن يطرح العاملون في صناعة الكتاب هذا السؤال الذي فرضه التقدم السريع والمذهل في عالم الحاسوب، الذي أصبح الآن في متناول الجميع، بعد أن كان حلماً يراود أذهان الكثيرين، فالجهاز الذي كان بحجم غرفة أصبح يحتل مكاناً صغيراً بجانب المكتب، أو يحمل باليد لينقله المرء أينما ذهب أو حل.

وإذا كان هذا الحاسوب يقدم لطالبي المعرفة ما يقدمه الكتاب وربما أكثر، وفي وقت قصير إذا ما قورن بالوقت الذي يحتاجه جلب وتخزين وقراءة الكتاب، فإن هذا يقودنا إلى السؤال المطروح

من قبل العاملين في صناعة الكتاب:

هل سيحل الحاسوب محل الكتاب في المستقبل ..؟!

هذا السؤال الذي يزعج الناشرين وأصحاب المطابع، هل هو في محله أم أن هذا التخوف سابق لأوانه مادامت صناعة الكتاب لا زالت قائمة رغم هذا التقدم المتنامي في صناعة الحاسوب ؟! للإجابة على هذا السؤال: لا بد أن نذكر أن الكتاب تظل له متعته الخاصة التي لا يمكن أن يوفرها الحاسوب، فإذا كان الحاسوب قادراً على توفير المعلومة بما تعنيه من حقائق وأرقام وتوثيق، فإنه غير قادر على توفير المتعة الذهنية التي يوفرها الكتاب عند قراءة نص إبداعي تساهم القراءة في فتح مغاليقه وكشف أسراره واستنباط معانيه، حيث تشترك معظم الحواس في القراءة مما يسجل لصالح الكتاب، ويدعوا للإطمئنان على مستقبله، ونحن نذكر أن وسائل حديثه حاولت أن تحل محل الكتاب فلم تستطع، ومنها السينما، ومنها الشريط المسموع، فالسينما التي حاولت إنتاج الروايات العالمية في أفلام ذات مؤثرات مبهرة وأجواء تغري المشاهد بالمتابعة، لم تستطع النيل من مكانة الكتاب، وكذلك الشريط المسموع الأقل كلفة والذي لا يحتل سوى مكان صغير .. لم يستطع النيل أيضاً من مكانة الكتاب الذي وصف بأنه خير جليس كما جاء على لسان الشاعر القائل:

أعز مكان في الدُّنى سرج سابح

وخير جليس في الزمان كتاب

مرة أخرى نعود إلى نفس السؤال:

هل سيحل الحاسوب محل الكتاب في المستقبل ؟!

من وجة نظري أجد صعوبة في هذا الاحتمال وخاصة في المنظور القريب، مع الاعتراف بأن انحسار انتشار الكتاب أصبح ظاهرة لا يمكن إنكارها، وهو انحسار ليس سببه الحاسوب في كل الحالات، ولكن السبب الأساسي هو انصراف الناس عن القراءة لتعدد وسائل المعرفة، وانتشار الفضائيات، التي أصبحت تستهلك وقتاً غير يسير كان في الماضي يستهلك في القراءة، ثم أن كثرة المطبوعات السيارة من صحف ومجلات ودوريات، استولى على عدد من القراء الذين لا يحرصون على تعميق ثقافتهم بل يكتفون باليسير من الثقافة، التي ربما لا تتعدى مجالات عملهم، وبدلاً من الثقافة العامة ظهرت الثقافة النوعية أو المتخصصة في فرع واحد من فروع المعرفة دون سواه، وكما أن للحاسوب مهماته الإدارية والمعرفية، فإن للكتاب أيضاً مهماته التثقيفية والتحريضية على الإبداع.

ولا زالت الثقافة تستوعب كل معطيات التقنية لتصل إلى المتلقي بأساليب جديدة أكثر إمتاعاً وتشويقاً، فالمهم في نهاية الأمر أن يوجد القارئ الباحث عن المعرفة في مضانها وعن الإبداع في مواطنه.

وستظل المكتبة الإلكترونية رافداً للمكتبة الورقية..

أدب الطفل

لم يزل أدب الطفل في آخر قائمة اهتمام المؤسسات الثقافية في عالمنا العربي، رغم كثرة الحديث عن هذا الموضوع، فالمنتج في مجال أدب الطفل ضئيل مقارنة بالمنتج في مجالات الأدب الأخرى من شعر ونثر، وما زال هذا الميدان مفتوحاً أمام المطبوعات الأجنبية التي تصدر لأطفالنا ألواناً من الثقافة الغريبة على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وساعد على تكريس هذا الاتجاه ما تقدمه التلفزة من أفلام للأطفال ، تستحوذ على اهتماماتهم، وتحتل مساحة كبيرة من أوقات فراغهم ، الذي يفترض أن تستهلك في ممارسة الهوايات النافعة بل أن من الأطفال من يفقد السيطرة على الوقت فيمضي أمام جهاز التلفزيون ما يزيد على وقت فراغه، لمتابعة المسلسلات والأفلام وأفلام الصور المتحركة، على حساب المذاكرة والتحصيل العلمي والواجبات المدرسية.

ولا جدال بأن الكتابة للطفل تحتاج إلى التخصص، لتقديم المادة الثقافية الصالحة للأطفال على اختلاف مستوياتهم العمرية، وذلك من أناشيد أو قصص أو نصوص تراعي قدراتهم النفسية والعقلية ومدى استيعابهم لها، وتتدخل الطباعة في عملية التشويق ليقبل الطفل على الكتاب خاصة مع توفر البدائل الأخرى، وهذا التشويق يحتاج إلى عناصر هامة منها وضوح

حروف الطباعة واقترانها بالرسوم مع مراعاة الحجم المناسب للكتاب وسهولة تداوله.

والكل يدرك أهمية أدب الطفل، إذا أُحسن التعامل معه، لذلك فإن أي إصدار في هذا المجال لابد أن يخضع لمقاييس محددة، إذا أردنا الوصول إلى النتائج الإيجابية المطلوبة، وإصدار سلسلة من كتب الأطفال لا يعتمد على الجهد الفردي، بل لابد من لجنة من ذوي الإختصاص تتولى هذه المهمة وتوليها عنايتها الفائقة، فليس المهم هو صدور الكتاب، ولكن المهم هو قدرته على تحقيق الهدف، في توعية الناشئين وغرس القيم والمبادئ الأصيلة في نفوسهم، وإكسابهم المناعة ضد التيارات الفاسدة الهوجاء، التي تكاد تقتلع قناعات تربى عليها المجتمع والأمة منذ مئات السنين، ومثل هذه المناعة لا تكتسب بغير التخطيط العلمي المبني على دراسات تسعى إلى مصلحة الطفل، وبناء عقله، وإعداده للمشاركة في صناعة مستقبل الأمة.

وإذا قارنا ما ينتج في عالمنا العربي للطفل مع ما ينتج خارجه نجد أن ما ينتج في العالم العربي قاطبة من مطبوعات للأطفال من مجلات وقصص وأناشيد، لا يساوي ما تنتجه دار نشر واحدة في نيويورك أو باريس أو لندن، وهذا الفارق الشاسع في المقارنة يدل على فهمنا لأهمية أدب الطفل، وهو فهم يفتقد الوعي بأهمية هذا النوع من الأدب، وكذلك ضرورة تعويد الأطفال على

القراءة الجادة والمفيدة التي تؤهلهم للقيام بأدوارهم في الحياة دون تعثر أو عقبات، ولو أحصينا عدد المهتمين بأدب الطفل في عالمنا العربي لوجدناهم قلة لا تكاد تذكر، بينما هم في الدول المتقدمة أكثر عدداً وتخصصاً وإدراكاً لهذه المهمه الصعبة، ودور النشر في تلك الدول تبذل بسخاء على صناعة كتاب أدب الطفل لتحقق هدفين هما الهدف التربوي والهدف المادي، فلا عجب أن تتخصص بعض دور النشر في تلك الدول في مطبوعات الأطفال دون غيرها، لتنتج مطبوعاتها بكفاءة عالية وكثافة كبيرة، تمكنها من الاستجابة لمتطلبات سوق الكتاب في جميع أنحاء العالم ، وهي تتبع أساليب تسويقية متطورة تمكنها من الوصول إلى أي مكان من خلال الارتباط بشركات التوزيع المحلية في كل البلدان.

في قطر كانت هناك تجربة لم تستمر، فقد أصدرت إدارة الثقافة عدداً من كتب الأطفال، لكنها لم تحظ بالتوزيع المناسب ولا بالعناية من أجهزة الإعلام، فاقتصر توزيعها على نطاق ضيق فلم تصل إلى أيدي الكثيرين من أطفالنا المتعطشين إلى العلم والمعرفة، وأمام مؤسساتنا الثقافية فرصة استغلال هذا المجال الخصب، والاستفادة من ذوي الاختصاص، وفي تراثنا العربي والإسلامي كثير من الموضوعات التي يمكن أن تقدم للأطفال بالأسلوب المناسب وفي إطار القصة أو الشعر أو الكتابة التوجيهية المباشرة، وإن كانت القصة هي الأقرب إلى فهم الطفل

ومـداركـه، وهـي إلى جـانـب ذلك تفـتح أمـامـه عـوالم خـصـبـة من الخيال غير المحدود، وتنمي مـواهبه في الكتابة، وتزيد من رصيده اللغوي، مما يساعده على التعبير عن نفسه وعن أفكاره.

فهل تهتم مؤسساتنا الثقافية بهذا المجال الحيوي والهام..؟!

تـرويـج الثـقـافـة الـرديـئـــة

من عـجـائـب الأمـور أن تـروج الـبـضـاعـة الرديئة بشـتـى السـبـل، وتهـيـأ لهـا مناخـات الاسـتـهـلاك، لـيـقـبـل الناس عليهـا رغم رداءتهـا، وهـذا الـسـلـوك الاسـتـهـلاكـي ينـسـجـم تمامـاً مع مـا يـسـود الـحـيـاة المعاصرة من أنماط حياتية أصبحت سمة العصر دون منازع.

فـي هذا السياق يأتـي الاهتمـام بلون أدبي هـجين، لا هـو بالشـعـر فينظم ولا هو بالنثر فيهضم، وما هو إلا تهـويمات وصـور هـلامية وعبارات كلامية وجمل غير مفيدة، تقدم على أنـهـا شعـر حديث أو شـعـر عـصـري، ولعل له من هذه الـتـسـمـيـة نصيب فـهـو غـيـر مـفـهـوم حتى وإن عصـر عصـراً ليزج به إلى دائرة الفـهم دون جدوى. وهذا النوع الكـلامـي الذي يـسـمـى شعـراً ظلمـاً وعـدوانـاً، ظلمـاً للمـتـلـقـي وعدواناً على الشعر، تقام له أمسيات ويدعى لها الحضور، وتتكبد جهة الدعوة جهداً ومالاً في غير محله، وكأنها بذلك تشارك في التـآمـر على شـعـرنـا الـعـربي الأصـيل، وهـو تـآمـر لم يـقـتـصـر على الشـعـر أو الأدب أوالثـقـافـة، بل امـتـد إلـى الهـوية الـقـومـيـة والـديـنـيـة لينتظم في محاولات النيل من هذه الأمة وتراثها وأصالتها.

لا أحـد يعترض على التطوير، وهـاهـي قصيـدة التـفـعـيلة تشكل وجـهـاً مشـرقـاً لـتطور الشـعـر العربي المعـاصـر، وفـي ميـدانهـا الـواسـع

يجد المجددون مجالات الإبداع بلا حدود، لكن أن يسمى النثر الفج المطلسم شعراً بعد خلوه من ملامح الإبداع ومقوماته، فهذا هو السهم المسموم الموجه إلى قلب الشعر العربي، لعله يصيب منه مقتلاً كما يظن المهووسون بهذا التخريف الممجوج، الذي ينافي الذائقة الفنية مهما أحيط بهالات الدعاية الكاذبة، وأضواء الإعلام المنحرف الأهداف.

وأسوأ ما في الأمر أن يركب هذه الموجة شاعر كتب القصيدة العمودية فأبدع فيها، وكتب قصيدة التفعيلة فملك عنانها، واستحوذ على اهتمام المتلقي، ثم نراه وقد انتكس ليهيم في وديان الحذلقة الكلامية والتلاعب بالألفاظ، فيكتب ما يسمى قصيدة النثر، فمن رأى منكم شمساً سوداء أو مطراً بلا ماء، أو شجراً بلا جذور فليخبرني بذلك، وفي الوقت الذي يتخلى فيه أقطاب هذا النوع من الكتابة عن ممارسته، يسارع هواة الموضة إلى تقليد هذا التوجه الأرعن، الذي لا تحكمه قاعدة سوى قاعدة التغريب والتلاعب بالكلمات، فالإسفاف ديدنهم والتهريف مذهبهم والله المستعان على مسلكهم.

عندما كنا حديثي عهد بالكتابة، كانت كتابة الوجدانيات سبيلاً للتعبير عن مشاعرنا وأحاسيسنا، ولم يجرؤ أحد منا على تسمية تلك الوجدانيات شعراً رغم أنها أفضل ألف مرة مما يكتبه هؤلاء المتشاعرون والمتشاعرات.

ولو أجزنا ما يذهبونَ إليه من لغو الكلام، لاستطاع كل منا أن يسطر كتاباً في كل أسبوع وربما في ما هو أقل من ذلك.

فهل هذا هو الشعر ؟ فلنقرأ هذا المقطع:

في قارعة الطريق

تركت قلبي المثخن بالجراح

تتقاذفه رياح الظنون الحجرية

قمر يطل من نافذة السماء

يوميء للقلب

مواسم الثمار الشهية تلاشت

في غيابة الجب والحب

والسهد يوقظ جدران الصمت

من غفوتها

تنوح أرصفة الليل بعواء اليأس

عتمة همس وجوى وأباريق

وقلبي في قارعة الطريق

فما الفرق في أن يكتب بهذا التقطيع أو أن يكتب بشكل متتال هكذا:

(في قارعة الطريق تركت قلبي المثخن بالجراح، تتقاذفه رياح الظنون الحجرية، قمر يطل من نافذة السماء، يومىء للقلب؛ مواسم الثمار الشهية تلاشت في غيابة الجب والحب، والسهد يوقظ جدران الصمت من غفوتها، تنوح أرصفة الليل بعواء اليأس، عتمة همس وجوى وأباريق، وقلبي في قارعة الطريق).

ثم بعد ذلك علينا أن نبحث عن سدنة الشعر العربي الأصيل، وحراس اللغة المدافعين عن حياضها، لنسألهم ماذا فهموا من هذه البضاعة الرديئة، التي يحاول تسويقها بعض النقاد المنتفعين، أو بعض المسؤولين عن بعض المؤسسات الثقافية بكل ما يميزهم من جهل، وافتقار إلى الذوق الفني الرفيع.

غنــــاء أم غثــاء؟

تشكل الفنون وجهاً مشرقاً لحضارات الشعوب، وهي تبرز جانباً هاماً من جوانب أنشطتها الإنسانية، لذلك تحرص كل الشعوب على تقديم فنونها كأبهى ما يكون التقديم، وفي شكلها الحضاري المتميز، إذ يمكن حتى لغير المختصين معرفة الشعوب التي تنتمي إليها تلك الفنون، من خلال الإطار العام الذي يقدم فيه كل فن، فالفنون الهندية أو الصينية أو اليابانية أو الأسبانية مثلاً وليس حصراً، يمكن تمييزها عن غيرها من فنون الشعوب الأخرى، ومن هذه الفنون فن الغناء، سواء بشكله الفردي أو الجماعي، فهو في الحالتين يثبت انتماءه ويحافظ على هويته، دون أن يكون بمعزل عن التطوير، والاستفادة من تقنيات العصر.

فما هو الحال بالنسبة للغناء العربي ..؟

إنه حال لا يسر .. فبعد أن كانت الأغنية العربية في مجملها فناً راقياً، يستحوذ على القلوب وتطرب له الأنفس، أصبحت ابتذالاً تعافه الأذواق، وتنفر منه المشاعر، وسارت متخطبة في دروب التقليد، لتحاكي الأغنية الغربية في شكلها ومضمونها. وأفرزت الساحة الغنائية في عالمنا العربي هذا الغثاء البعيد عن الرقي والبعيد عن الإمتاع الذهني، بعد أن تحول إلى تجارة يتحكم

في مصيرها تجار (الكاسيت) الذين أحالوا الغناء إلى غثاء مموج تأباه الأذواق السليمة، وترفضه النفوس السوية، وقد كانت الأغنية العربية مثالاً للشموخ والإباء والحث على مجابهة الظالمين بعد أن تجاوزوا المدى، فحق حيالهم الجهاد وحق الفداء، ومثالاً للتغني بالأمجاد منذ أن ولد الهدى فالكائنات ضياء. وفم الزمان تبسم وثناء. وإذا ألم بالشام حزن هتف له أرض الكنانة:

سـلام مـن صـبـا بردي أرق

ودمـع لا يكفكف يا دمـشـق

فماذا نسمع الآن ؟ رجالاً يشحذون العطف من الحبيبة دون كرامة، لعلها تجود عليهم بنظرة، ونساء أشبه بالدمى يرددن بأصوات محمومة ألفاظ البعد والفراق والصد والهجران، وكل واحدة منهن تقول: يا أرض انهدي ما عليك قدي، مع أنها في الحقيقة لا تساوي قلامة ظفر، خارج إطار الفن الذي كان رفيعاً وأضحى رقيعاً والعياذ بالله.

وإلى خليجنا الأغر امتدت أيدي العبث الفني، فأصبحت الأغنية فناً هزيلاً بلا هوية، وإلا ماذا نفسر ظهور فناني وفنانات الخليج وخلفهم مناظر الثلوج والجبال في أوروبا، ومعهم فرق الرقص التي تنتمي إلى كل البلدان ما عدا الخليج؟ وماذا نفسر ظهور فنان خليجي - وهو يغني - يجوب شوارع إحدى مدن

الشرق أو الغرب ؟ وكأن مدن الخليج أصبح ارتيادها عاراً، أو لا يليق بمقامه غير الكريم، ثم ماذا يعني ظهور فنانة خليجية منفوشة الشعر شبه عارية الصدر لتتأوه وتتلوى وكأن أفعى قد لدغتها. أو أخرى تظهر بملابس عجيبة وغريبة، ومعها فرقة رقص لا يعرف فيها الرجال من النساء، وهو أمر لم يألفه سكان الخليج والبركة في "الفيديو كليب".

عندما نسمع أو نرى أغاني الشعوب الأخرى ، نلمس مدى انتمائها للبيئة التي نبعت منها .. لكننا لا نسمع ولا نرى في أغانينا شيئاً يمكن أن يدل على انتمائها إلينا، فهي بلا هوية ولا انتماء ولا لون مميز.

هناك من حافظ على الهوية، لكن الأغلبية هربت من إطار الهوية والانتماء، إلى مستنقع الإسفاف والعبث، وأصبحت كالغراب الذي أراد أن يقلد مشية الطاووس، فنسي مشيته ولم يتقن مشية الطاووس.

منذ الصغر ونحن نستمع إلى فيروز، ونسمع في صوتها صوت الرياح منسابة بين الجبال والوديان، ومراعي الضيعة وأشجار الأرز، وعندما شاهدناها قرأنا في ملامحها وفي إيقاعات أغانيها تاريخ لبنان وأمجاده؛ ولا تزال تنأى بفنها الجميل عن ارتكاب الأسفاف، وهي واحدة من كوكبة مارست الفن الجميل المتألق وإن

تقادم به العهد، ولم تمنعها المحافظة على الهوية من التطوير والاستفادة من تقنيات العصر.

صحيح أن لكل عصر فنه وفنانيه، لكن الفن الجميل يظل مطلوباً في كل العصور، ومقاييس الجمال وإن اختلفت من عصر لآخر، لكن تظل الحقيقة الثابتة هي أن القبح لا يمكن أن يسمى جمالاً. فمن ينقذ الأغنية العربية من هلاميتها، ومن ينقذ الأغنية الخليجية من ضياعها في وديان التقليد الأعمى ؟.

وكما قال إخواننا المصريون:

(يعوض اللّه يا مزيكا

أي واللّه ورخصتي يا سيكا

الفنانين الأيام دي

قلبوها رقص شيكا وبيكا). ولعل فيروز قد أدركت العلة عندما قالت:

(أنا صار لازم ودعكن .. وخبركن عني

أنا كل القصة لو منكن .. ما كنت بغني

غنينا أغاني عشاق

غنينا لواحد مشتاق

ودايماً بالآخر .. في وقت فراق)

فهل يفارق ساحة الغناء هؤلاء الذين أحالوه إلى غثاء ؟.

وهل يشعرون بمسؤولية الفنان الأصيل الذي لا يسعى وراء الربح السريع، والإثارة المستهجنة ؟.

أم أن المسألة أولاً وأخيراً تجارة تجرف في طريقها قيم الخير والجمال والفن الجميل ؟!.

سلطان الشعر

رغم كل ما يقال عن سطوة بعض الفنون الأدبية وسيطرتها على الساحة الثقافية، فإن سلطان الشعر هو المسيطر على كل الأجواء الثقافية على مستوى الوطن العربي. وهذا الانطباع لا يحتاج إلى إحصائيات ووسائل إيضاح وأرقام، بل هو مشاهد، إذ يمكن لأي متابع لما تفرزه الحركة الثقافية من إبداعات أن يخرج بهذا الانطباع الذي يدعمه الواقع .. فلا القصة القصيرة، ولا الرواية، ولا أي لون أدبي آخر يمكن أن يجاري الشعر، وتبني هذا الانطباع لا يأتي من باب التعصب للشعر، ولكنه يأتي للتنبيه إلى قصور بقية الفنون الأدبية عن مجاراة الشعر، رغم ما يحتاجه الشعر من جهد ومعاناة بالنسبة للشاعر أو القارئ على حد سواء.

وقد بدأ بعض الشعراء يدركون بشكل عملي هذه الظاهرة، عندما أضافوا إلى أمجادهم الشعرية، مجداً جديداً بكتابة الرواية، في الوقت الذي نشط فيه كتاب القصة القصيرة لتقديم المزيد من إنتاجهم القصصي، وكأنما أرادوا اللحاق بركب الشعراء المتقدم بخطوات كبيرة .. ولا يبدو أنهم قادرون على تجاوزها، لأن الذائقة العربية قد نشأت على الشعر منذ مئات السنين، حتى أصبحت أي جهود لزحزحته عن مكانه محكوم عليها بالفشل

مقدماً، وهي محاولة لا جدوى منها إذا أدركنا أن الساحة الثقافية مفتوحة وقادرة على استيعاب كل الأجناس الأدبية، دون الخوف من نتائج طغيان أي لون أدبي على بقية ألوان الأدب الأخرى، ومما يحسب للشعر أنه يتلاءم مع جميع وسائل التوصيل، لما يتضمنه من عوامل تساعد على قبوله في حالات القراءة أو السماع أو الحفظ والرواية، وهذه ميزات لا تتوفر لغيره من ألوان الأدب الأخرى، حيث لا يمكن على سبيل المثال نقل النص القصصي أو النقدي عن طريق الحفظ، كما أن القصة كنشاط منبري لا تزال محل خلاف، لأن الكثيرين لا زالوا يرون أن متعة القراءة للقصة تفوق بكثير متعة الاستماع إليها، أما الرواية فهي مبعدة عن شكل الأداء المنبري، وكل هذا يأتي في صالح الشعر في كل الحالات.

المتلقي بحاجة لمختلف فنون الأدب، حتى لا يظل أسير لون أدبي دون سواه، لذلك فإن الحاجة تظل قائمة لأن تبرز بقية الفنون الأدبية كما برز الشعر، من ناحية الذيوع والانتشار، وهذا لن يتأتى بين عشية وضحاها إذا أخذنا بعين الاعتبار العوامل التي سبقت الإشارة إليها .. وهو عوامل في صالح الشعر إذا قورن ببعض الأجناس الأدبية التي لم يعرفها أدبنا العربي إلا في هذا العصر، وإن كانت لها جذورها الضاربة في عمق الأدب العربي. وما تضخه المطابع إلى سوق الكتاب من مطبوعات إبداعية .. يوضح الفارق في المنتج الشعري مقارنة ببقية ألوان

الأدب، حيث تزيد نسبة عدد دواوين الشعر مقارنة بعدد كتب السرد على سبيل المثال.

ولا أعتقد أن هناك من يستطيع زحزحة سلطان الشعر عن مملكته، لكن هذا لا يمنع من محاولة مجاراته في الاستحواذ على اهتمام القراء. وهي مهمة ليست سهلة، لكنها تضع كتاب القصة القصيرة والرواية والنقد، وكتاب المسرح والدراما الإذاعية والمتلفزة وجميع الأجناس الكتابية .. في تحد مع الشعر. ما دام سلطان الشعر يفرض نفسه بهذا الشموخ والتحدي.

والدعوة إلى الوصول بألوان الأدب الأخرى إلى مستوى الشعر من ناحية سطوته القوية على الساحة الثقافية، نقول أن هذا التوجه، لا يقلل من شأن الشعر بل يخدمه، فجميع ألوان الأدب مرتبطة بشكل أو بآخر، إذ لا يمكن فصلها من حيث الأهداف والغايات، حتى وإن أمكن فصلها من حيث الشكل والمضمون، وازدهار أي لون أدبي هو ازدهار للأدب ذاته، ومع ذلك فإن سلطان الشعر ستظل له سطوته التي لا تفوقها أي سطوة لأي لون من ألوان الأدب، رغم التطور الكبير والتجارب الناجحة التي تشهدها ألوان أدبية مختلفة.

ترهل الثقافة

ما يصيب الثقافة من ترهل يؤدي إلى بعض المظاهر الشاذة، هو إفراز طبيعي لمجموعة من العوامل ذات التأثير المباشر على الحياة العامة، في أي مجتمع، وغالباً ما يكون المثقف مقياساً لوعي مجتمعه، فالمجتمعات الواعية تلفظ بإصرار أدعياء الثقافة، فلا يكون لهم سوى الحضور الهامشي الذي لا يلبث أن يتلاشى كما يتلاشى الهباء المنثور، بينما تجد هذه النماذج ـ من أدعياء الثقافة ـ الأبواب مشرعة أمامها، في المجتمعات النامية .. لتمارس تسطحها وسلبيتها وعدم قدرتها على الإبداع البناء، بل لتمارس تسلطها وربما غوغائيتها أو تشرنقها للحفاظ على الذات، واتخاذ موقع الهجوم والقمع، أحياناً بالاعتماد على الطرق الملتوية للنيل من الآخرين بتجاهل وعي الآخرين، أو الاعتماد على الطرق المباشرة في النقد الهدام دون تقديم البديل.

ووعي المثقف كفيل بأن يتيح له رصيداً من المعرفة يوفر له إمكانية تقويم بعض الأمور ، من منطلقات معرفية واضحة وصحيحة، لكن بافتقاد ذلك الوعي يصبح الافتقار إلى المعرفة من أهم عناصر النقد الهدام، بل هو سبب من أسباب انتفاء صفة الثقافة عن أدعيائها، وإذا وجدنا عذراً لأدعياء الثقافة أو أنصاف المثقفين لسلوك هذا الفعل المسيء للآخرين، والمجهض لجهودهم

البناءة، فإننا لن نجد أي عذر للمثقفين الحقيقيين الذين يكتفون بالطرح السلبي دون تقديم رؤية واضحة، أو بدائل مقنعة للمواضيع التي يتصدون لها بالنقد، ولأصحابها بالتجريح.

نحن كمسلمين يأبى ديننا الحنيف، وتأبى قيمنا العربية الأصيلة أن نلجأ إلى مثل هذه الأساليب المعوجة في الطرح، سواء كان هذا الطرح في المجال الثقافي أو غيره، فالحياة عموماً لابد أن ينتظمها الصدق، ويسمو بها الوضوح، فالتنديد ببعض الأمور يقتضي وجود رؤية بديلة ومقنعة، وإلا فما أسهل الهدم، وما من أمر إلا ويعتريه بعض القصور، وهذا القصور دافع لتجنب مواطن الضعف، ومعالجة أوجه النقص، وليس سبباً وجيهاً للهدم والتنديد دون تقديم البديل، فالبناء شيء، والتنظير والتنديد بالواقع شيء آخر.

وعندما نتحدث عن ترهل الثقافة، فإننا نتحدث عن فئة من الكتاب اعتمدت على التنظير البعيد عن الواقع، وهو تنظير لا يراعي في الغالب هذا الواقع، وكأنه يتحدث عن أمور تجري خارج الزمان والمكان، مع أن الواقع بحاجة إلى من يساهم في إنقاذه من الجمود، والانطلاق به إلى آفاق التطور والازدهار، وهذا أمر لن يتم بمجرد التنظير من بروج عاجية، تنآى بالمثقف عن تلمس الواقع وتعزله عن هموم الحياة والناس، وهذا النوع من الثقافة المترهلة لن تفيد حتى أصحابها، ولن تعطي صورة واقعية لما يجري في المجتمع، لأنها تكتفي بالتنظير الذي يلغي جهود

الآخرين، مع التركيز على النقد الهدام دون تقديم البدائل المفيدة، والاجدى من ذلك هو اتخاذ قاعدة صلبة من الواقع يمكن الانطلاق منها لمعالجة الكثير من الإشكاليات الحياتية، فلم تعد الثقافة بمعزل عن الحياة في أدق خصوصياتها، بل هي وجه من أوجه هذه الحياة، تتأثر بها وتؤثر عليها، وأي جهد لعزلها عن الحياة سيودي بها إلى الإضمحلال والزوال.

وليس اعتماد التنظير وحده هو المعبر عن ترهل الثقافة، فهناك أيضاً هذا السيل العرم من المؤلفات غير المجدية والمحسوبة على الثقافة والمثقفين، والتي لا هم لأصحابها سوى الظهور، فلا عجب بعد ذلك أن يذكر مؤلف له عشرات الكتب دون أن تحظى هذه الكتب بأي اهتمام من قبل القراء أو النقاد، لأنها لا تحمل أية قيمة ثقافية، وكل ما يعني مؤلفها هو الظهور بهذا النتاج الهزيل، وهذه آفة تشكو منها الثقافة في كل البلاد العربية، وخاصة تلك البلاد ذات الوفرة الاقتصادية التي تتيح لكل من أراد أن يصبح مؤلفاً فرصاً لا تتوفر لغيره بسهولة، بصرف النظر عن القيمة الثقافية لما يقدمه من مؤلفات تسيء إلى الحركة الثقافية العربية بصفة عامة، وهذا أمر لابد أن يحظى باهتمام أصحاب الشأن ممن يتولون تسيير أمور الثقافة، ويشرفون عليها بشكل أو بآخر، ويملكون القدرة على درء الأخطار التي تحيط بها من كل جانب، وهي أخطار كثيرة لا تقتصر على هذا النوع من الترهل الثقافي وإن كان هذا أسوأ ما يمكن أن يسيء إلى الثقافة بصفة عامة.

اللاعنف = الحب

غاندي من أبرز دعاة الاستقامة واللاعنف في العالم ، وهو يروي هذه الحادثة التي سماها الدرس الأول في كتابه (السيرة الذاتية) إذ قام بتأثير رفاقه وهو لا يزال صغيراً ، في البدء بتجريب تدخين السجائر وأكل اللحوم ، وهما من الأمور المحظورة جداً في منزله ، وبين أفراد طائفته ، والأسوأ من ذلك أنه سرق نقوداً لشراء هذه الأشياء المحرمة ، الأمر الذي أوجد لديه شعوراً عميقاً بالذنب ، وبعد أن رزحت نفسه تحت وطأة الخزي والندم ، اعترف لأبيه بالأمر كاملاً ، مبدياً استعداده لأي عقاب قد يوقعه أبوه ، ولدهشته التامة ، لم يقم أبوه بتوبيخه ولا بعقابه ، ولكنه سامحه منتحباً ، وقد بلغ عمق تأثر غاندي بهذه التجربة ، أنه لم يعد مرة أخرى قط للتدخين أو تناول اللحم .

هذا لا يبرر الخطيئة ، ولا يدعوا إلى ترك الجاني يعبث فساداً في الأرض ، ولكنه يعني أن علاج الكراهية هو الحب ، الذي يقطع دابر تلك الكراهية ، وفي ظلال الحب يصعب أن تنمو الكراهية ، والعنف هو الثمرة الكريهة الطعم والرائحة للكراهية ، وفي أجواء الحب تختنق الكراهية ويوأد العنف ، وتتفتح زنابق الطمأنينة والوئام .

والحكومات العسكرية التي تستخدم العنف ضد مواطنيها لفرض هيمنتها ونفوذها بالقوة ، لا تجد قبولا حسناً من أولئك المواطنين ، وغالباً ما تنتهي نهاية مؤسفة ، إذ ينقلب السحر على الساحر ، وتتجرع من نفس الكأس التي سقتها لمواطنيها ، لأن العنف لا يولد غير العنف والكراهية لا تجلب غير الكراهية .

ونحن المسلمين لسنا بحاجة لأن نقتدي بغاندي أو غيره ، فلدينا من تعاليم ديننا الحنيف ، ومن تراثنا العربي ما يفتح آفاق التسامح والحب على مصراعيها، لننهل وينهل غيرنا من ينابيع الخير والمودة والمحبة ، وفي مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم ومواقف أصحابه من العبر والدروس ما يصلح أن يكون نبراساً لحياة تظللها المحبة ، ويسودها الوئام .

وفي عصرنا الحاضر ومع تعقد الكثير من أمور الحياة يضاف إلى مسؤولية الكتاب والأدباء مسؤولية الدعوة إلى المحبة والسلام بين أفراد الأمة ، ونبذ التناحر والخصام والفرقة التي كبدت الأمة خسائر فادحة كان من الممكن تلافيها بالمحبة والوئام .

وغياب المحبة أتاح لأعداء الأمة التطاول عليها، وعلى قيمها واتهامها بالكراهية والعنف، وهو اتهام باطل يروج له أعداء الأمة ، وعلى الكتاب والأدباء دفع هذه التهمة بالحجة القوية والبيان الناصع ، فليست الأمة بحاجة إلى المزيد من التهم التي يطلقها

الأعداء بلا حساب ، أما ما يرتكب من عنف وينسب إلى المسلمين في بعض البلدان ، فما ذلك إلا ظلم وبهتان ، لأن الإسلام هو دين الرحمة والتآلف ونبذ الفرقة والتنافر ، مع أن الفرق واضح بين مطالبة المسلمين بحقوقهم ، وبين إخضاعهم بقوة الحديد والنار للتخلي عن هذه الحقوق، والخط الواضح بين حق الدفاع عن النفس والإرهاب ، له هدفه المعروف وهو حرمان الشعوب من مقاومة الاحتلال ، وإخضاع هذه الشعوب لسيطرة المغتصب .

الكراهية إن لم تحاصر بالحب ، فإن نتائجها وخيمة ، ليس على مستوى العلاقات بين الأفراد ، ولكن أيضاً على مستوى العلاقات بين الحكومات وشعوبها ، ومستوى العلاقات بين الدول ، والكتاب والأدباء من أولى الأولويات لديهم إشاعة المحبة بين أفراد الأمة ، وخاصة وأن للكلمة تأثير أشد وأمضى من أي سلاح آخر ، إذا كان غاندي قد ارتدع عن خطاياه بالمحبة ، فإن من ينتمي إلى دين المحبة والسلام هو الأولى بأن يرتدع عن الخطايا تحت مظلة المحبة والتسامح والسلام ، التي يدعو لها الإسلام لتكون سلوكاً وممارسة حياتية، و تحمي المسلمين من رياح الاتهامات الباطلة ، والدعاوى الرخيصة ، وترسم طريق المستقبل المليء بالأمل والخير والتفاؤل .

ثقافة السلام

في ظل شعارات الانهزام ، وفي سياق العولمة ، تبرز نغمة جديدة عن ثقافة السلام ، بدعوى نبذ الحروب ، لا فرق في ذلك بين حروب الإبادة وتشريد الأبرياء ، وحروب التحرير الهادفة لرفع الظلم عن المظلومين والانتصار للقضايا العادلة ، ولو أنصفوا لقالوا ثقافة الاستسلام وليس ثقافة السلام ، فهذا المصطلح الجديد في الفكر ، يسعى إلى تكريس الهزيمة ، ويحول دون مطالبة الشعوب بحقوقها ، وهو كما تشير بدلالاته اللفظية ، وأهدافه الأيديولوجية ، إنما يأتي وبالاً على المناضلين من أجل استرداد حقوقهم المغتصبة ، والمنافحين عن قضاياهم العادلة ، ومع كل محاولات فرض هذا المصطلح .. فإن التسليم به من أصعب الأمور ، لأن صاحب القضية لا يعترف بمن يصرفه عن قضيته تحت أي شعار .

والدعوة إلي تبني ثقافة السلام أشبه ما تكون بالنفخ في القربة المقطوعة ، لأن هذه الدعوة لن تجد من يصغي إليها ، وإن تبناها الكبار لفرض سياسة الأمر الواقع ، والتمهيد للتحولات المنتظرة في عالم الغد ، وما يحمله المستقبل من مفاجئات ، ولعل أولئك الكبار يتجاهلون بذلك حقائق وثوابت لن تتخلى عنها

الشعوب المستضعفة باعتبارها قدرها الذي لا مناص لها منه .. ومهما حاول الكبار تمرير مثل هذا المصطلح ، وفرضوا على شعوب الدول النامية تنفيذه ، فإن مثل هذه المحاولات ستبوء بالفشل ، لأن الانتصار دائماً للعدل والحق والحرية ، وهي على كل حال مسائل نسبية مهما تعرضت للانتهاك في أي مكان وأي زمان .

وإذا كانت الدول الكبرى تحاول فرض هذا المصطلح على الدول المستضعفة ، فإنها تتعامل مع الدول المعتدية من موقع مختلف ، عندما تساعد تلك الدول في عدوانها ، وتبرر ذلك العدوان بشتى السبل والوسائل ، فأين هي ثقافة السلام المزعوم ؟

إن من أهداف ما يسمى بثقافة السلام هو فرض الثقافة التي ترغم المعتدى عليه على الاستسلام دون مقاومة ، أما المعتدي فهو الذي يلقى كل تبرير لعدوانه، وكل مساندة لجرائمه ، وهنا يتحول السلام إلى استسلام واضح لا لبس فيه ، ولا غبار عليه ، مما يدفع الشعوب المغتصب إلى رفضه جملة وتفصيلاً ، لأن القبول به يعني التسليم بالهزيمة والخضوع للاحتلال بلا رفض أو مقاومة، ولو كانت تلك الدول التي تتبنى مشروع ثقافة السلام جادة في دعواها، لأرغمت الدول المعتدية على إنهاء عدوانها ، ليأخذ هذا المصطلح منحاه التطبيقي على الجميع ، لا على المستضعفين فقط ، فهذا

انحياز مكشوف لا يمكن تبريره ، تحت أي ظرف من الظروف .

إن من يتبنى مصطلح ثقافة السلام هم الأكثر انتهاكاً للسلام ، وعلى أيديهم تعرضت البشرية للكثير من النكبات والخسائر ، ولا تزال الوصاية التي تفرضها دول الشمال على دول الجنوب .. خير شاهد على ما أردنا الوصول إليه من حقيقة معروفة لدى الجميع وإن حاول بعضهم تجاهلها ، وهذه الحقيقة تتمثل في إصرار كل الشعوب المقهورة على نبذ استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وفرض كل أنواع الوصايات على مقدرات تلك الشعوب ، مهما بلغت نبرة الداعين لهذا المصطلح .. من حدة وعنف أو مهما قدم هذا المصطلح وأمثاله مغلفاً بأساليب الترهيب أو الترغيب .

وما لم تكن ثقافة السلام نابعة من السلام الحقيقي مهما كان ثمنه ، فإن هذا المصطلح سيسقط كما سقطت مصطلحات فكرية كثيرة كشفت الأيام عن بطلانها وسوء مقاصده ، كما كشفت نوايا أصحابها ومن يقف وراءها بالدعم والمساندة ، وهي نوايا خبيثة هدفها النيل من حريات الشعوب ، وحرمانها من حق مقاومة الاحتلال ، وسلبها حقها في النضال المشروع لإثبات وجودها على خارطة هذا العالم الذي يحتكر فيه الكبار تقرير مصير العالم ، وقيادته عبر الدهاليز المظلمة .. السياسية والاقتصادية والعسكرية، لتظل القوة للأقوياء دائماً ، وللشعوب المستضعفة الاستعباد والقهر والعدوان والتبعية لكل ما ينتمي لتلك الدول الكبرى .

الإبـــداع بـين الـغـــني والـفـقـيـر

كتب أحـد الروائيين العـرب زاعـماً أن الثـراء لا يخلق الموهبـة ، وقد أثارت هـذه المقولة إحدى الـكاتبات فحاولت تـأكيد عكس ذلك مؤكدة أن الفقر لا يخلق الموهبـة ، بل يقضي عليها ، ولولا الغني لما اسـتطاع ذلك الكاتب أن يخـرج إلى عـالم الشـهـرة ، ولبقى مجـهولاً في بلده ، ومن وجهة نظري الشخصية أنه لا الغنى ولا الفقر هو الذي يصنـع الموهبــة ، ولكنـه الاسـتـعـداد الفطري ، ومـا الـظروف الاجتماعيـة والاقتصادية سـوى مؤثرات لصقل الموهبـة ، والمعاناة هـي إحـدى هذه المؤثرات ، وكـذلك الإحـسـاس المرهـف ، والشـعـور الطاغي بمعانـاة الاخرين ، ولا يمكن القول أن الموهبـة تقتصر على الفـقـراء دون الأغنيـاء ، أو عـلى الأغنيـاء دون الـفـقـراء ، وهذه الأحـادية فـي التـفكير تـذكرنا بتلك الأسئلة الـسـاذجـة التي توجـه لأطفالنا : هل تحب أمك أم أباك ، وكـأنه لا توجـد منطقـة وسطى بين الأشياء .

أن المعـانـاة الذاتـيـة أو الشـعـور بمعـانـاة الآخـرين لا تـقـتصـر على فئة دون سـواها ، وليس من العدل أن نجـرد الأغنياء من مشـاعرهم الإنسـانيـة وإحـسـاسـهم بمعـانـاة الآخـرين ، أو نجـرد الـفـقـراء من إحـسـاسـهم بمرارة العـوز وهم يعـيـشـون فـي أتون هـذه المعـانـاة ،

ويمكن ببساطة أن نضع قائمة طويلة من المبدعين الأغنياء ، وإلى جانبهم قائمة مماثلة من المبدعين الفقراء ، دون أن يؤثر ذلك علي الإبداع من حيث هو موهبة .

وإذا كان الإبداع يتأثر بالظروف المحيطة بالمبدع باعتبار أن هذه الظروف هي المحرض على إنعاش الموهبة ، فهذا لا يعني أن تكون هذه الظروف قاسية صعبة ، كما لا يعني أن تكون رخية ومواتية ، ففي الحالتين يظل الأمر مقتصراً على المبدع وقدرته على الاستفادة من تلك الظروف لتقديم إنتاج إبداعي متميز ، وبذرة الإبداع هي نتاج الموهبة التي يمكن أن توجد في كل الأجواء والظروف ، فإذا تعهدها صاحبها بالرعاية، نمت وأينعت وأتت أكلها ثمراً جنياً ، وإذا أهملها تراكم عليها غبار الأيام وأصبحت نسياً منسياً ، وكل ذلك لا علاقة له بالغنى أو الفقر ، ومن المخالف لطبيعة الأمور وناموس الحياة ، أن تقتصر هذه الموهبة أو تلك على فئة بعينها ، دون سواها من البشر ، وهذه من البدهيات التي لا نملك إلا التسليم بها وبشكل مطلق .

الملاحظة التي لا يمكن تجاوزها هي أن معظم المشتغلين بالأدب في عالمنا العربي، هم من الذين عقدوا اتفاقيات دائمة مع الفقر ، مالم تكن لهم وظائف ذات رواتب تحقق لهم حفظ الكرامة ، لأن الاعتماد على الأدب لا يحقق دخلاً يحقق مكانة مرموقة للأديب ،

لذلك قالت العرب لمن يحترف هذه المهنة : أصابته حرفة الأدب ، والإصابة هنا لها معناها السلبي على كل حال ، لكن هذا الأمر لا يجب أن يصيب بالإحباط من ينوون ولوج هذا الباب ، فقد يكون خلفه من المكاسب مالا يتحقق إلا لأصحاب المواصفات الخاصة ، ولا أقول المواهب والقدرات الأدبية الخاصة .

في الغرب يكون للأديب وضعه الذي يختلف به عن بقية أدباء العالم الثالث، لأنه ربما بكتاب واحد ، يستطيع أن يحقق ثراء لا يحلم به كل أدباء العالم العربي ، فهناك يحظى الكتاب برواج منقطع النظير ، بسبب القدرة على التسويق ، ووجود قارىء يبحث عن الكتاب الجيد ، ويجده نتيجة قلة الضغوط التي تمارس على المؤلف كما هو الحال في العالم العربي ، أو العالم الثالث بصفة عامة ، حيث تغيب مناخات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ، وتزدهر الرقابة الصارمة على المصنفات الأدبية والفنية .

وقد يكون المبدع فقيراً في بداية حياته ، ثم تفتح أمامه أبواب الرزق ، فهل هذا يحرمه من الانتماء إلى واحة الأدب ؟ هذا السؤال نوجهه إلى من يربط الإبداع بحالات الفقر أو الغنى ، وهو ربط غير مقبول ، لأن الإبداع هو الإبداع ، يكون أو لا يكون ، وعندما يتدفق نهر الإبداع فإنه لا يعرف الحواجز أو السدود.

ومـاذا تـقـول أنت ؟

قـرأت لأحـد الـكتـاب مقـالة (نقـدية) مطولة ولكنها كانت مثقلة بكثرة الاستشهادات، التي حاول من خلالها أن يضيء مجال رؤيته النقدية ، وبدلا من ذلك بدت مقالته عرجاء تتكئ في كل خطواتها على مـا قـاله الكاتب الـفـلاني والـناقـد العـلانـي ، كمـا بدت رؤيتـه ضـبـابيـة لا تكشف عـن رأي واضح ولا عن مـوقف مـحـدد وهـذه قضية لا يمكن تجاوزها بسهولة ، مادام الهدف هو أن يستفيد القـارىء وأن يصل إلـى النتيـجـة التي يتـوخـاها الـكاتب دائمـاً من كتاباته ، وهي أن يصل رأيه وموقفه للمتلقي .

وهـذا الاتكاء على أقوال الآخـرين يضع القـارىء فـي حيـرة من أمره ، فهو يتساءل : هل أراد الكاتب استعراض معلوماته ومعرفته لآراء الآخـرين ، أم أراد الهـروب من طـرح رأيه الخـاص ؟ أم أنه لا يملك في الأسـاس رأياً واضحاً ومـحدداً حيـال موضـوعـه ؟ أم أن المسألة مجرد استعراض عضلات ومل فراغ المساحة التي أتاحتها المطبوعة لذلك الكاتب ، هذه أسئلة وجيهة يبحث لها القارىء عن إجابات شافية فلا يجد .

لقد حـاولت أن أقـارن بين مـا كـتـبـه بذاته ومـا نقله عـن غـيـره . فوجدت أن مـا جـادت به قـريحتـه لا يمثل ربع مـا نقله من نصـوص

نسبها لأصحابها من الكتاب المعروفين ، وكانت نسبة كبيرة من جهده الخاص هي مجرد ربط بين أقوال أولئك الكتاب ، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ، تماماً كما يفعل مذيع الربط بالإذاعة عندما يقدم فقرات الفترة الإذاعية ، ولا أعرف لماذا يلجأ كاتب ما .. إلى شغل نفسه بأمور هو غير مؤهل ثقافياً للخوض فيها ؟ عندما يقوم بدور الناقد ، وهو دور لا يليق أن يستهان به ما لم تتوفر الأدوات التي تتيح لمن يلج هذا الباب الإجادة فيه وإذا اضطر إلى ذلك .. لماذا لا يقول رأيه الخاص ، مهما كان هذا الرأي ؟ أما إذا أراد الاستشهاد بآراء الآخرين لدعم رأيه ، فإنه ذلك لا يعني ولا يقتضي جمع عدد كبير من الآراء لعدد كبير من النقاد والكتاب لإثبات هذا الاستشهاد ، وكأنما هو بذلك يتنصل عن رأيه وينسبه إلى الآخرين هذا إذا كان يملك رأياً في الأساس.

وفي هذا المجال هناك ظاهرة لا يمكن إغفالها لدى هؤلاء الذين يختفون وراء آراء الآخرين، وهي أنهم مغرمون بالكتاب الأجانب ، مع أن في الكتاب العرب من لهم آراء قد تكون متقدمة على آراء غيرهم من الكتاب الأجانب في الموضوع ذاته، فيتجاهلونها بهدف التظاهر ، والإدعاء مع إقرارنا أن الثقافة لا موطن ولا جنسية لها ، لكن ليس من الحكمة تجاهل الرأي العربي لأنه عربي ، وإجمالاً فإن الاتكاء على الآخرين لسبب أو لآخر لا يعني طمس هوية الكاتب ، وذوبان رأيه، بل وغياب هذا الرأي كلياً

، وقد يستسيغ المتلقي ، أو يقتضي الحال الاستشهاد بآراء الآخرين ، وهذا أمر لا غبار عليه ، بل هو مطلوب في بعض الأحيان ، لكن هذا المتلقي لن يستفيد كثيراً إذا لم يعرف رأي وموقف الكاتب ذاته في الموضوع الذي يتطرق إليه .

نعم .. من حق الكاتب أن يستشهد بأقوال من يريد ، ومن حقه أن يورد ما يعجبه من تلك الآراء في معرض استشهاده ، لكن ليس من حقه أن يتكىء عليها بشكل سافر يلغي دوره ككاتب له رأيه الخاص ، ورؤيته الخاصة تجاه موضوعه ، وهو بذلك إنما يخيب ظن قارئه ويدفعه إلى الشك في مقدرة هذا الكاتب على العطاء الجاد الذي يستفيد من القارىء ولا يأسف على الوقت الذي قضاه مع كاتب لا رأي ولا موقف له، ولقائل أن يقول أن الآراء التي يتم الاستشهاد بها مفيدة للقارئ على كل حال ، وهذا فيه ما فيه من الصحة ، لكن هدف القارىء هو معرفة رأي الكاتب ذاته في الموضوع الذي اختار تناوله، دون أن يكون لأحد رأي في هذا الاختيار .

ولمثل هذا الكاتب نقول وبلا تردد :

- إذا كان هذا ما يقوله الآخرون .. فماذا تقول أنت ؟

ادعــاء المعــرفــة

يبتلي بعض كتابنا بظاهرة ادعاء المعرفة بكل الأمور والخوض في كل الموضوعات، تحدثاً وكتابة وربما خطابة إذا أتيحت لهم الفرصة ، وهذا الادعاء سرعان ما يكشفه ذوو الاختصاص الذين يعرفون في مجال تخصصهم ما لا يعرفه غيرهم ، وإذا كان من حق الكاتب أن يتطرق إلى الموضوعات الحياتية العامة ، فإن تطرقه للموضوعات التي يحتاج الخوض فيها إلى تخصص .. إنما هو استهانة بوعي القارئ .. هذا الوعي الذي يفترض أن يأخذه الكاتب بعين الاعتبار، فلا يقدم لقرائه بضاعة هزيلة ، ركيزتها استعراض العضلات في أمور تحتاج إلى التخصص الأكاديمي أكثر من حاجتها إلى الاجتهاد والتنظير العشوائي، الذي لا يعتمد على دليل علمي ثابت ، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن وعي القارئ قد وصل إلي سن الرشد ، فلم يعد هذا القارئ يسلم بشكل مطلق بكل ما يقال له ، أو يعرض عليه ، أو يعرفه بشكل أو بآخر ، وهذا الموقف من القارئ هو نتيجة طبيعية لإلمامه بأمور كثيرة لم يكن أسلافه علي علم بها .

والكاتب في مثل هذا الطرح هو أحد أثنين ، إما أن يكون معتمداً على رأيه الشخصي في موضوع علمي لا يخضع للاجتهاد العشوائي ، وبهذا يفقد الموضوع قيمته العلمية ، ويكون ضرره أكثر من نفعه ،

أو أن يكون معتمداً على النقل غير الدقيق ، لأن الدقة في المجالات العلمية لا يتقنها إلا من تخصص في المادة العلمية ذاتها ، وحتى في حالات هذا النقل فإن عليه أن يذيل مقالته بذكر المراجع محافظة على الأمانة العلمية التي يقتضيها شرف الانتماء لعالم الكتابة ، وإثباتاً لمصداقية الكاتب في اجتهاده الهادف للمنفعة والإفادة .

وجنوح بعض الكتاب إلى استعراض عضلاتهم في موضوعات علمية هو نوع من التباهي الذي لا يتناسب مع دور الكاتب في الإصلاح الاجتماعي ، والتنوير الثقافي، وهي مهمة لا يمكن الاستهانة بها مهما كانت الأسباب والظروف ، ومع أن الإدلاء بوجهات النظر أمر وارد بل ومطلوب في مجالات الأدب خاصة والثقافة عامة ، إلا أن مثل هذا الأمر غير وارد بل ومرفوض في مجالات العلم ذات الصيغة التخصصية ، وإلا أصبحت الكتابة نوعاً من التخبط في استجداء الإعجاب ، وهو إعجاب لن يلبث أن ينقلب إلى استهجان عند معرفة الحقيقة .. وما أسوأها من حقيقة !

ومع أن المعرفة ليست وقفاً على أحد دون سواه، إلا أن هذا لا يبيح ادعاء المعرفة بكل الأمور ، ومثل هذا الادعاء لا يؤدي إلى طريق الإخفاق في تحقيق الأهداف . والبحث المتواصل عن المعرفة هو ديدن الإنسان، وهو لن يعثر عليها إلا عند الراسخين

في العلم وكل حسب اختصاصه ، ولن يشبع نهمه أو يلبي حاجته أن يقتنص المعلومة غير الدقيقة، ومن كتاب ظنوا أنهم يعرفون كل شيء، وهم أقرب إلى الجهل منهم إلى العلم بأمور كثيرة يدعون العلم بها .

فالكاتب الموسوعي غير موجود ، بل لم يعد وجوده مطلوباً منذ بدايات التعليم الأكاديمي ووجود التخصص ، وهو إنجاز القرون الأخيرة للحضارة الإنسانية التي لم تكن في الماضي تعرف (التخصص الأكاديمي) .

ولكن ماذا نقول وهناك من يبالغ في ادعائه المعرفة بكل الأمور ، ولا يتردد في الخوض فيها كتابة أو تحدثاً وعن غير علم ، فهو يتمادى في الدخول إلى حومة العلم غير مسلح بسلاح التخصص .. وهذه مجازفة لا تحمد عقباها ، وقد تضع مرتكبيها تحت طائلة القانون في بعض الحالات ، لأن للعلم حرمته كما أن للثقافة حرمتها .

أما كان الأجدر هو الحفاظ على هيبة الكاتب، وعدم إقدامه على الدخول إلى المناطق المحظورة ؟ أسئلة لا تحتاج إلى إجابات لأنها من البدهيات التي يسلم بها كل كاتب يحترم نفسه وكتاباته وقرائه ، هذا هو الثالوث الذي لا بد له من التوافق والانسجام لتحقيق أهداف الكتابة .

القصـة القصـيرة في ظـل المتغـيرات

تشـهـد مـعظم دول العـالم تغـيـرات تدريجـيـة في الاتجـاه نحـو الاستفادة من قدرات الإبداع، وجوهر هذه النظرة أن الناس جميعاً يمتلكون كل القدرات والسمات، ولكن بقدر يتفاوت من فرد لآخر، وأنه ليس هناك اخـتـلاف بين الناس إلا في درجـة وجـود هذه القدرات والسمات.

وعلى الرغم من أن تلك التـغـيـرات ربما لا تكون بالمسـتـوى المأمول، ألا أن احتمال تعامل المجتمعات مع عمليـة الإبداع بشكل أكثر شمولية وعدلاً .. قد أصبحت اليوم أفضل مما كانت عليه بالأمس، نتيجـة الوعي الذي طرأ على إنسـان هذا العـصـر، وهو وعي أفـرزته جـملة من المنجـزات الحـضـارية التي حـقـقـهـا في مجالات حياتية عديدة.

وقد أوحى لبـداية هذا التغيـر جان بول سـارتر، حينما وصف عملية الإبداع لدى الكاتب بأنها عمل، وهو يقول في هذا الصدد: (كل شيء سميته لم يعد بعد على وجه الدقة هو هو، بل أنه فقد بهذه التسمية فطرته التي كان عليها ؛ إذا سـميت سلوك إنسان فقد أوحيت به إليه، فـجعلتـه يرى نفسـه، وبما أنك حـددت هذا السلوك للآخرين، في الوقت نفسه، فإن ذلك الشخص يدرك أنه

مرئي في اللحظة التي يرى فيها نفسه، فكيف تريد بعد ذلك أن يبقى لصاحبها نفس سلوكه من قبل ؟ فإما أن يواظب على ما كان عليه من سلوكه عن عناد وكامل وعي، وإما أن يرتد عنه، وهكذا بمشروعي الأدبي أكشف عن الموقف قاصداً كل القصد إلى التغيير، وأجلوه أمام العيون، وحينذاك أكون صاحب التصرف فيه. في كل كلمة أرسلها أغوص قليلاً في هذا العالم وفي الوقت نفسه أطفو فيه بالتدريج لأني أتجاوزه إلى المستقبل)[1].

وهذا يعني أن التغيير ما لم يوظف للمستقبل، يظل فاقداً لشرعية بقائه واستمراره، وإن لم يكن بالصيغة التي ذكرها سارتر تماماً. إنه أمر يمس الكاتب بشكل مباشر، فهو يقوم من خلال (فعل) الكتابة .. بعمل إلزامي في إطار الخلق الإبداعي، مما يعني أن يعيش في بيئة مهما كانت متقدمة، فإن هناك بذور التغيير كامنة في باطنها، ومن خلال تفجير الوعي لدى المتلقي يتولى الكاتب مهمة مسؤولية تلغيم النص بعوامل التحريض على ذلك التغيير الذي يفضي إلى المستقبل، مستمداً من الحاضر عوامل استشراف لذلك المستقبل، دون أن يتجاهل الماضي بأي حال من الأحوال.

والثقافة تتحمل جزء غير يسير من مهمة التغيير، بل إنها الأكثر تأهيلاً لوضع أسس قيادة المجتمعات لحياة أفضل وأكثر

حرية وأمنا وسلاما، من هنا تصبح العملية الإبداعية التزاما حراً لدى الكاتب .. تجسد مسؤوليته الأدبية والتاريخية تجاه المجتمع والحياة، ولم يكن الالتزام لدى الكاتب يعني الإلزام، لأنه يعبر عن إرادته في تحديد مواقفه تجاه قضايا الوجود والعدم، دون الخضوع لأي انتماءات تطالبه بأن يرتدي جلداً غير جلده، ويتبنى فكراً غير فكره، ويدافع عن موقف غير موقفه، بعيداً عن إشكالية التعامل مع الواقع، إذا تعارض مع القناعات الذاتية لدى الكاتب، وهي قناعات لا تتكون من فراغ، بل هي حصيلة ثقافة تعددت روافدها، وتعمقت جذورها، وأعلنت عن نفسها بجلاء ووضوح.

(في كل مجتمع توجد اختيارات مطروحة، والذي يكون مقبولا اجتماعياً ولا يتعرض لأذى أو ازدراء أو عقاب مجتمعه، هو ذلك الإنسان الذي ينتقي كل اختياراته من بين الاختيارات التي يطرحها ذلك المجتمع الذي يعيش فيه.

وإذا كنا نؤمن بأن المجتمع، وخاصة في عصر العلم والتكنولوجيا، وما صاحب وسائل الإعلام من تطور هائل .. يتطور باستمرار، بغض النظر عن سرعة هذا التطور من مجتمع بآخر .. عندها لا مناص من أن نسلم بأن الاختيارات هي الأخرى تتغير كما ونوعا بالتبعية) (٢).

فإذا كانت هذه هي الحالة بالنسبة لعامة الناس، فإنها بالنسبة

للمثقف أكثر حساسية، وأكثر ديناميكية، ليس على حساب القناعات الذاتية، ولكن استجابة لضرورة التغيير باعتبارها تلبية حضارية للواقع، وليست ترفاً يمليه ذلك الواقع. (والمثقف العربي شاء أم أبى، جندي مجهول، وكادح مسؤول، تفرض عليه مهمات الثقافة العربية أن يحمل سلاح الكلمة، وأن يتقدم ليحارب في ميادين متعددة، في الفكر والتربية والأدب والفن، وحتى ميادين الحياة الروحية، والميادين التطبيقية المتعددة، بمستوى قيادي بيّن الالتزام بقضايا الأمة والوطن، والنضال الجماهيري السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ومن خلال هذا الفهم للعمل الثقافي الذي تحتمه المرحلة التاريخية الراهنة للمجتمع العربي المعاصر، يأتي التخطيط الثقافي القومي ليؤكد الحاجة إلى الانطلاق، أولاً وقبل كل شيء من منظور حضاري، أي من نظرة حضارية جديدة متحررة من التبعية للمنظورات الغربية الثقافية، وقائمة على إدارك موقع الأمة العربية في هذا العصر) [٣].

ولم تكن الثقافة العربية في يوم من الأيام أقل شأناً من الثقافات الأخرى، فهي تملك من مقومات البقاء والنمو ما يؤهلها للندية مع ثقافات العالم، رغم كل محاولات التغريب إلتي يتعرض لها المثقف العربي في هذا العصر، ورغم الترويج لفكر القطب الواحد، من خلال محاولات الاستحواذ والهيمنة على الثقافات

الأخرى، وطمس معالمها، وتذويب هويتها، وإلغائها نهائيا من خارطة الفكر الإنساني ؛ فللثقافة العربية قواعدها الصلبة التي تؤهلها للحوار مع الثقافات الأخرى، دون أدنى خوف من أي سيطرة فكرية محتملة، وإن تكن هذه المهمة صعبة في ظل غياب مشروع ثقافي عربي شامل، ولكنها الصعوبة التي لا تعني المستحيل، كما أن قيام مشروع ثقافي قومي وفق استراتيجية عربية شاملة .. ليس مستحيلاً أيضاً، إذا توفرت النوايا الصادقة، خاصة وأن الأمة زاخرة بالكفاءات القادرة على العطاء المتميز.

لم تكن الثقافة العربية في قطر بمعزل في يوم من الأيام عن الثقافة العربية الشاملة، إذ تحمل المثقف القطري مسؤولياته الوطنية والقومية على درجة كبيرة من الوعي، تنم عنها هذه الإبداعات الأدبية والفنية التي تزخر بها الساحة الثقافية في قطر، وقد تعددت الأصوات الإبداعية لدينا لتشمل مختلف فنون الإبداع الأدبي والفني ؛ وما يعنينا هنا هو صوت المبدع والمبدعة في قطر في مجال القصة القصيرة التي كانت بداياتها الجادة مع بداية السبعينيات الميلادية، وتحديداً عام ١٩٧١م عندما صدرت مجلة (العروبة) واحتضنت عدداً من المبدعين والمبدعات، ممن كان لهم شأنهم في تطوير القصة القصيرة في قطر فيما بعد، كما كانت لهم إسهاماتهم المميزة في هذا المجال من خلال عدد من المجموعات القصصية التي صدرت منذ ذلك التاريخ، واتضحت

ملامح القصة القصيرة في قطر بشكل أكثر مع صدور بعض المجلات الثقافية، وفي مقدمتها مجلة (الدوحة) وما تلاها من دوريات حكومية أو أهلية رسخت أقدام القصة القصيرة، وأكسبتها نضوجاً أكثر، وانتشاراً أوسع في عالمنا العربي، حتى كتب عنها عدد من النقاد العرب المرموقين (ومن الاستقراء المبدئي لحصيلة القصة القطرية القصيرة التي نشرتها المجلات والدوريات الثقافية في قطر على مدى السنوات الماضية، تبدو لنا ملاحظتان، الأولى هي غلبة الكاتبات القصصيات، وتزايد إنتاجهن عاما بعد عام، والثانية هي اصطباغ معظم هذا الإنتاج بطابع القلق والتمزق، والرغبة الجامحة في تحطيم القيود، وتخطي الحواجز، حتى ليمكن أن نطلق على جيل القصصيات المعاصرات "جيل التمرد والقلق") [٤].

وهذا استنتاج لا يزال يلقي بظلاله على القصصيات المعاصرات في قطر، حتى الآن، ولكن بشكل أقل حدة مما كان عليه الحال قبل عقدين من الزمن، وقد استطاعت القصة القصيرة في قطر أن تجد لها مكاناً بارزاً في الدوريات والمجلات الثقافية العربية، وبرزت في هذا المجال أصوات مميزة ذات حضور ملحوظ على المستوى العربي الشامل، وكما هي القصة القصيرة في عالمنا العربي، فقد أخذت القصة القصيرة في قطر بأساليب التجريب ذات العلاقة بتقنيات كتابة القصة وأساليبها

الجديدة، دون أن تتخلى عن وفائها لبعض عناصر القصة التقليدية، وهذا التجريب أصبح وسيلة لتطوير أساليب الإبداع في جميع مجالاته. ويقول د/ سعد البازعي: (أود أن أؤكد إيماني العميق بأن التجريب، وفتح آفاق العمل الأدبي، وكسر الحواجز القبلية، من الظواهر الطبيعية جداً في تاريخ الأدب، وإن النزعة الإنسانية لفعل ذلك هي المسؤولة الأولى عن استمرار الكتابة الإبداعية، غير أني أؤمن أيضاً بأن تقرير ذلك لا يكفي، والنقد إذا كان له أن ينزع منزعا معرفياً علمياً، أن يكون دراسة وتحليلا للظواهر الأدبية، فلابد له أن يطرح أسئلة أخرى تنطلق من المرجعية الاجتماعية والتاريخية للنص، وليس النص منغلقاً على نفسه، أو على غيره من النصوص، كما أنه لا بد له من أن يتساءل عما إذا كان هناك مبرر كاف لشكل ما من أشكال التجريب، وما إذا كان تجريب ما قد وفق أم لا) (٥).

وهذا التجريب إن كانت له دوافعه التاريخية والاجتماعية، فإنه لا يمكن أن يعزل عن حركة التجريب في الإبداع العربي المعاصر، ليس في القصة وحدها، بل في فروع أدبية وفنية أخرى حاولت ولا تزال الخروج على المألوف والقار من أساليب الممارسة لمدارس مختلفة في الأدب والفن، ووفق الشروط والأدوات المطلوبة لكل فن، تجنباً لفوضى تداخل الأجناس الأدبية، وفقدها هويتها

وملامحها المميزة، والتي عرفت بها دون سواها.

ولأن الأدب المعاصر في قطر لم يزدهر إلا مع ظهور الصحافة في بداية السبعينيات، فإن الحاجة لا تزال قائمة لتحقيق التواصل المنشود بينه وبين الأدب في البلدان العربية الأخرى، وهذه مسؤولية المؤسسات الثقافية المعنية، التي يفترض أن تنتقي ما تقدمه للساحة الثقافية، ويمكن لهذا التواصل أن يتحقق من خلال القنوات التالية:

- المؤتمرات والمنتديات والمهرجانات الثقافية.
- دور النشر العاملة في مجال تسويق الكتاب.
- عناية التلفزة والإذاعة والصحف بالتعريف بالأدب المحلي وتقديمه للقارئ العربي.
- تنظيم الوفود الأدبية - شعراء وقاصون ونقاد - لزيارة المؤسسات الثقافية العربية.

وهناك إلى جانب ذلك العديد من الوسائل لتحقيق التواصل مع الأدب والأدباء في العالم العربي.

القصة القصيرة في ظل المتغيرات لا يمكن إلا أن تستجيب لنتائج هذه المتغيرات، على النطاق النظري والتطبيقي، شأنها في ذلك شأن بقية فروع الأدب والفن والثقافة والفكر بصفة عامة، وإذا كانت معطيات العصر تفرض نفسها من خلال الحاجة إلى

تطوير الذات وتطوير المجتمع وتطوير الحياة نفسها، فإن الفكر عامة هو أحد وسائل هذا التطوير، في ظل ظروف أقليمية ودولية تفرض الحوار بين الثقافات، لتجاوز الأحادية الثقافية التي تلغي ما عداها، وتفرض مفاهيمها على شعوب العالم الثالث تحت ستار نظام اقتصادي جديد، يتحكم في مصائر الشعوب ؛ تلك المعطيات لا يمكن للأدب أن يعيش بمعزل عنها، ومن ألوان هذا الأدب القصة القصيرة باعتبارها تنبع من الواقع وإليه، رغم كل ما قد يطرأ عليها من تطور نتيجة محاولات التجريب المبذولة هنا وهناك، وهي حتى في تهويماتها (الفنتازية) لا تتجرد من هذا الواقع وإن حاولت التمرد عليه بطريقة أو بأخرى، عن طريق اللجوء إلى أساليب ومعالجات غريبة، بل ومضامين أكثر غرابة .. فإن هذا التمرد لا يلبث أصحابه أن يعودوا بالقصة إلى ما تعنيه بالنسبة للواقع باختلاف المضامين والأساليب.

الهوامش:

١- قاسم حسين صالح (الإبداع في الفن) وزارة الإعلام والثقافة - بغداد ١٩٨٦ ص ٦٣.

٢- د. الياس فرح (في الثقافة والحضارة) وزارة الإعلام والثقافة - بغداد ١٩٨٧ ص ١٠٧.

٣- د. محمد قافود د. حسن عيد د. إقبال هيكل (القصة القصيرة في قطر - مركز الوثائق الدراسات الإنسانية - جامعة قطر - الدوحة ١٩٨٥ ص ٢٨.

٤- د. سعد البازعي (ثقافة الصحراء) المؤلف - الرياض ١٩٩١ ص ١٦٠.

٥- جان بول سارتر (ما الأدب) - ترجمة محمد غنيمي هلال - الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧١ ص ١٧-١٨.

الفهرس

٢٠١.٢ كلثم جبـر

أوراق ثقـافـيـة / كلثم جـبـر .ــ الدوحـــة : المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، ٢٠٠٣.

١٠٤ ص ؛ ٢٤ سم .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٨٤ / ٢٠٠٣

الرقـم الدولـــي (ردمك) : ٦-٦٧-٦٨-٩٩٩٢١

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٨٤/ ٢٠٠٣م


المجلس الوطني
للثقافة
والفنون والتراث